فقه

دراسات فى فكر ابن تيمية

عبد اللطيف محمد العبد

دراسات
في فكر ابن تيمية

تأليف
الدكتور عبد اللطيف محمد العبد

فهرس

بسم ا الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد ، والشكر له، تبارك وتعالى. والصلاة والسـلام على رسولنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلـى الصحابة والتابعين وكل المؤمنين الطاهرين.

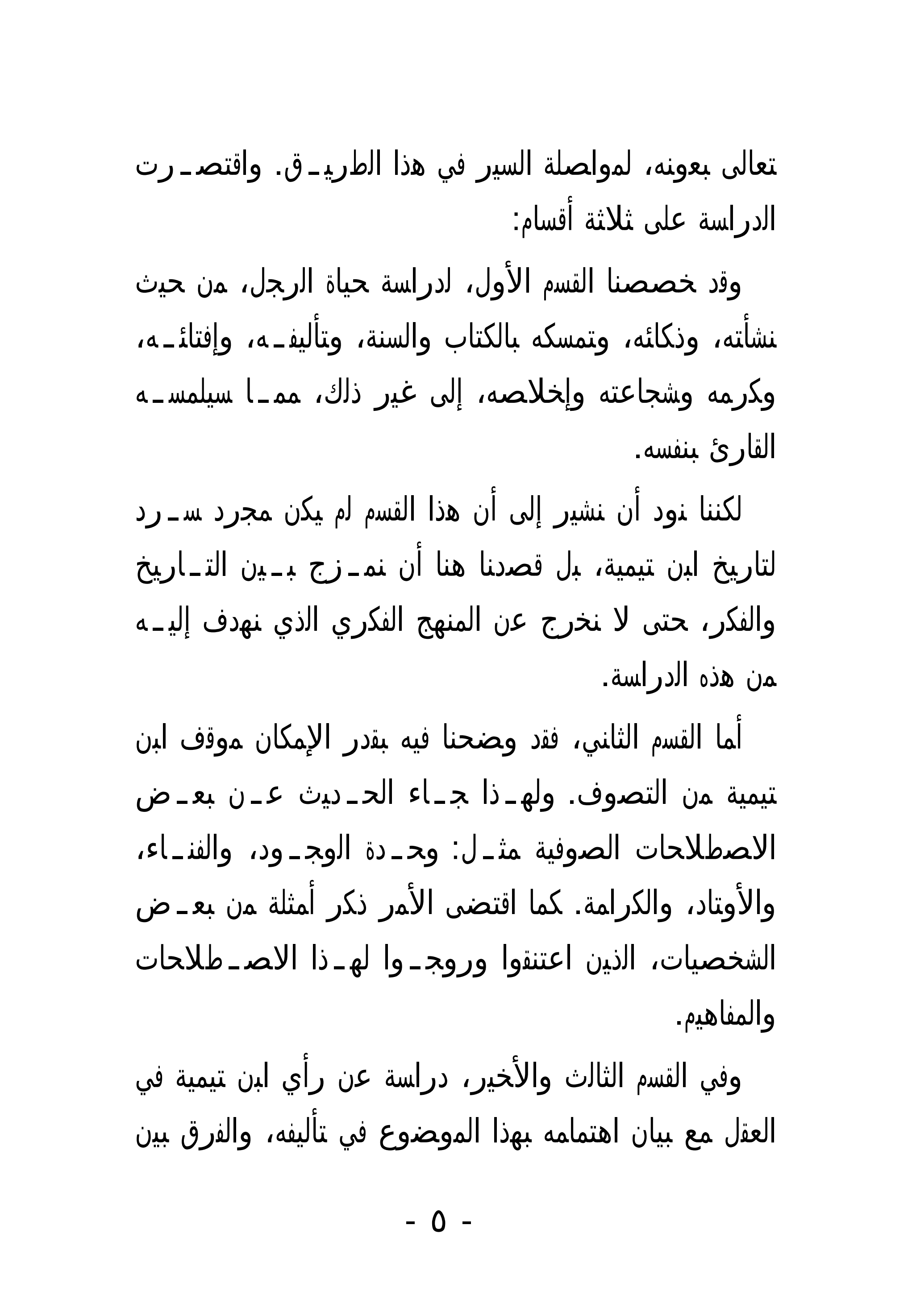
وبعد:

فهذه "دراسات في فكر ابـن تيميـة" أقـدمها للمفكـرين وللقراء، إحياء لفكر شيخ الإسلام ابن تيمية، ومساهمة فـي تجلية بعض المواقف الفكرية لهـذا العـالم العلـم المسـلم، ومشاركة في إحياء التراث الفكري العربي الإسلامي.

لقد كان ابن تيمية مثال المسلم الحق الغيور على الإسـلام وأهل الإسلام. وقد وهب حياته كلها دفاعا عن الحق الـذي أمر ا تعالى به، كما هو وارد في الكتاب والسنة وإجمـاع السلف الصالح.

ومن الصعب على باحث ما، أن يقدم دراسة كاملة عـن فكر شيخ الإسلام ابن تيمية، نظرا لسعة فكره، وعمق فهمه.

ومن هنا، فقد بدأنا بهذه الدراسة، راجـين أن يمـدنا ا



تعالى بعونه، لمواصلة السير في هذا الطريـق. واقتصـرت الدراسة على ثلاثة أقسام:

وقد خصصنا القسم الأول، لدراسة حياة الرجل، من حيث نشأته، وذكائه، وتمسكه بالكتاب والسنة، وتأليفـه، وإفتائـه، وكرمه وشجاعته وإخلاصه، إلى غير ذلك، ممـا سيلمسـه القارئ بنفسه.

لكننا نود أن نشير إلى أن هذا القسم لم يكن مجرد سـرد لتاريخ ابن تيمية، بل قصدنا هنا أن نمـزج بـين التـاريخ والفكر، حتى لا نخرج عن المنهج الفكري الذي نهدف إليـه من هذه الدراسة.

أما القسم الثاني، فقد وضحنا فيه بقدر الإمكان موقف ابن تيمية من التصوف. ولهـذا جـاء الحـديث عـن بعـض الاصطلاحات الصوفية مثـل: وحـدة الوجـود، والفنـاء، والأوتاد، والكرامة. كما اقتضى الأمر ذكر أمثلة من بعـض الشخصيات، الذين اعتنقوا وروجـوا لهـذا الاصـطلاحات والمفاهيم.

وفي القسم الثالث والأخير، دراسة عن رأي ابن تيمية في العقل مع بيان اهتمامه بهذا الموضوع في تأليفه، والفرق بين

مفهوم العقل لدى اليونان والمسلمين، ودور العقل في الأدلة، وعلاقته بالتكليف، وبالاجتهاد، وبالمنطق، وبـالمنقول، إلـى غير ذلك.

هذا ونسأل ا العلـي القـدير، أن يقبـل هـذا العمـل المتواضع، وأن ينفع به كل قارئ وسامع وأن يغفر للباحـث كل زلة أو تقصير، إنه ولينا، نعم المولى ونعم النصير..

عبد اللطيف محمد العبد

القسم الأول

حياة ابن تيمية

١- نشأة ابن تيمية ٦٦١ – ٧٢٨هـ:

ولقد ولد ابن تيمية، في القرن الثامن الهجري، في وقـت كان المسلمون فيه محتاجين أشد الاحتياج، إلى رجـل عـالم شجاع، بسبب توالي هجمات الأعداء.

وكان جده "أبو البركات مجد الدين" مـن أئمـة المـذهب الحنبلي وعلى درجة كبيرة من العلم والاجتهاد، ولذا فقد دعي بـ "المجتهد المطلق".

ولما حج الجد عام ٦٥١هـ، واصل رحلته إلى بغـداد، وقوبل وودع أعظم مقابلة وتوديع من علماء بغداد، لأنـه كان موضع تقديرهم واحترامهم، لفرط ذكائه وبراعته فـي المعرفة [١].

أما والد ابن تيمية فهو: الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية، وهو عالم محدث وفقيه حنبلـي وصـاحب تـدريس وإفتاء.

---

[1] أبو الحسن الندوي: حياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية ص ٣٤ ترجمة سعد الأعظمي الندوي ط ١ ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م دار القلم الكويت .

وبعد انتقاله من حران إلى دمشق، تولى التدريس في الجامع الأموي، الذي لم يكن يستطيع التدريس فيه، إلا كبار العلماء من ذوي الكفاءة العلمية.

وكان هذا الوالد، يرتجل الدروس، ويتحدث من الذاكرة، دون الاستعانة بمرجع أمامه. وبذلك استحق شياخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان مسكنه. وتوفي رحمه ا تعالى عام ٦٨٢هـ، ودفن بمقابر الصوفية[٢].

أما مولد شيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، فقد كان في "حران" وهي مدينة تشتهر بالمعرفة. وقد ولد في يوم الاثنين عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة.

ولما بلغ سن السابعة، انتقل به والده، من حران إلى دمشق، حيث نما وتربى تربية إسلامية زكية[٣]، كان لها أكبر الأثر في شموخ خلقه وغزارة علمه.

---

(3) البزار: الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢١ تحقيق د. المنجد ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦ م دار الكتاب الجديد – بيروت .الزركلي: الأعلام ١: ١٤٠ ط ٣ – ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م بيروت .وكحالة: معجم المؤلفين ١: ٢٦١ بيروت ١٩٥٧م .

وقد سماه والده بـ "أحمد تقي الدين" واكتنى بـ "أبي العباس" يافعا، غير أنه اشتهر بـ "ابن تيمية" فغلب لقبه النسبي على اسمه.

وفي أيام صباه، كان الحاكم لمصر والشام، هو الملك الظاهر بيبرس، وعند وفاة الظاهر، كان ابن تيمية شابا بالغًا من العمر خمسة عشر عاما. ويذكر التاريخ من حسنات الملك الظاهر، أنه أول ملك مسلم قوي بعد صلاح الدين، اعتنى بالجهاد، وقهر أعداء الإسلام والمسلمين.

وقد اتسم عصر شيخ الإسلام ابن تيمية، بوقوع حوادث خطيرة، وقلاقل عديدة فقد ولد الشيخ بعد تدمير بغداد بخمس سنوات، وبعد دخول التتر إلى حلب ودمشق بثلاث سنوات.

وقد شاهد ابن تيمية بنفسه، آثار الدمار الناجمة عن هذا الهجوم المتكرر، كما علم بمذابح المسلمين، على أيدي تلك العصابات الوحشية.

٢- ذكاء ابن تيمية

قد اشتهرت أسرة الشيخ ابن تيمية، بقوة الـذاكرة وكثـرة الحفظ وسرعته. ولم يكن الشيخ أقل منهم في ذلك، إن لم يكن فاقهم بحق. وقد أدهش العلماء بذاكرتـه القويـة، وسـرعة حفظه، وعبقريته الفذة. وتمتعه بصفة "الجامعية" أو "الكليـة" في تلك المعارف. أضف إلى هذا توفيق ا تعالى له وتسديده خطاه.

كذلك كانت عبقريته، مصدرا من مصادر معارضة بعض العلماء له، حقدا وكمدا على نبوغه وتفوقه. وقد أسلم يهودي على يده، وهو صغير، نظرا لأن اليهودي كان يلقـي عليـه أسئلة فيجيبه عليه بإقناع.

وكانت ذاكرته القوية سببا في تبحره في العلوم الإسلامية وغيرها "وكانت مخايل النجابة عليه فـي صـغره لائحـة، ودلائل العناية فيه واضحة[٤]".

وقد وهب ا تعالى، شيخ الإسلام، خاصية كبيـرة، فـي

---

(4) البزار: الأعلام العلية ص ٢١

استنباط المعاني من الألفاظ القرآنية والنبوية. كـذلك أعانـه المولى عز وجل، على إبراز الدلائل، وتبيين مفهـوم اللفـظ ومنطوقه، وتوضيح العام والخاص والناسخ والمنسوخ، مـع عدم إغفال الضوابط والنتائج.

ولم يكن يأسف على قضاء أي وقـت، فـي أي مسـألة علمية، إذ ربما استمر يوما بأكمله في شرح حديث، أو قطع مجلسا بأجمعه في تفسير آية كريمة.

"حتى إذا ذكر آية، أو حديثا، وبين معانيه وما أريد بـه، يعجب العالم الفطن من حسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه، أو وقف عليه منه. ولقد سئل يوما عن الحديث: "لعن ا المحل والمحلل له" فلم يزل يورد فيه وعليه، حتى بلغ كلامـه فيـه مجلدا [5]".

كذلك كان ابن تيمية، حاضر البديهة في الشعر. فقد حكى أحد أصدقائه أنه حضر مجلس الشيخ، فسأله يهـودي عـن مسألة في القدر وكان قد نظمها شعرا في ثمانية أبيات. ففكر

---

(5) المصدر السابق ص ٣٢’ الحديث أخرجه: أحمد ١: ٤٤٨ وأبو داود: نكاح ١٥، والترمذي: نكاح ٢٨

الشيخ لحظة يسيرة، ثم أنشأ يكتب جوابها، وجعـل يكتـب، والجالسون يظنون أنه يكتب نثرا وقد فوجئ الحضور، بأنـه كتب ردا صاغه شعرا، يقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتًا، من نفس بحر السؤال وقافيته.

"وقد أبرز فيها من العلوم، ما لو شـرح بشـرح، لجـاء شرحه مجلدين كبيرين، هذا من جملة بـواهره. وكـم مـن جواب فتوى لم يسبق إلى مثله[6].

٣- اهتمامه بالقرآن الكريم:

قد حفظ ابن تيمية القرآن الكريم منذ وقـت مبكـر، مـع حضور مجالس العلم والتفسير. كذلك كان القرآن الكريم، هو مصدر اهتمامه الأول، لدى ابن تيمية: قراءة أو تفسيرا، ومن الطبيعي أن تكون ملازمة القـرآن ذات أثـر كبيـر فـيمن يلازمه، ولا سيما مع مسلم مخاص غيور، مثل ابن تيمية[7].

---

(6) المصدر السابق ٢٨ .

(7) هنري لاووست: نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع ١: ٢٠٥ ترجمة محمد عبد العظيم علي ط ١ ١٣٩٦هـ = ١٩٧٧ م دار الأنصار بالقاهرة .

وكان يفهم التأويل، على أنه تفسير وبيان، مثلمـا فهمـه المسلمون في الصدر الأول. كما يرى أن أسـلوب القـرآن الكريم ومنهجه في الاستدلال لإثبات الحقـائق، هـو خيـر المناهج وأشدها تأثيرا في النفوس. وكـان يفضـل تفسـير الطبري، لخلوه من البدع، وتثبته في النقـل عـن السـلف الصالح. [8]

ومن هنا نجد ابن تيمية، كثير الاستشهاد بالقرآن الكـريم، في كتاباته كلها، كقوله:

"ليس لأحد أن يعمل فـي الـدين، إلا مـا شـرعه ا ورسوله، دون ما يشتهيه ويهواه. قال تعالى: ﴿ **ومن أضـل ممن اتبع هواه بغير هدى من ا ِ** ﴾ [9] (الآية الخمسون من سورة القصص).

وفي درسه للتفسير، لم يكن ابن تيمية يعد قدرا معينا مـن القرآن للتفسير، بل كان من حضر يقرأ ما تيسر، ويأخذ هـو في القول على تفسيره.

---

(8) الندوي: حياة شيخ الإسلام ص ٢١٤

9 ابن تيمية: الفتاوى الكبري١: ٤ ط ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦ م دار المعرفة بيروت .

ولم يكن يقطع الكلام، إلا ويفهم السامعون، أنه لولا مضي الزمن المعتاد، لزادهم توضيحا أكثر من ذلك.

وقد أملى في تفسير ﴿ **قُلْ هو ا ُ أَحد**﴾ مجلدا كبيرا وفي ﴿ **الرحمن على العرش استوى**﴾ نحو خمس وثلاثين كراسة. وقد شرع في تفسير للقرآن لو أتمه لبلغ خمسين مجلدا. ويقول عنه البزار:

"أما غزارة علومه، فمنها: ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه ا تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته، فإن فيه الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يعول عليها[10]".

٤- غيرته على الشرع:

كثيرا ما اتهم الشيخ من مخالفيه، بالخروج على أصول أهل السنة. وقد عقد له ذات مرة مجلس علماء نائب السلطنة، وقرئت فيه رسالة ابن تيمية المسماة "العقيدة الواسطية"

---

[10] البزار: الأعلام العلية ٢٣

وناقشه العلماء وأجاب على اعتراضاتهم.

وقد قرروا أخيرا، أن هذه الرسالة متفقة مع مذهب أهل السنة وعاد الشيخ وقد أحاط به العامة، وحملوا له شموعا، حبا له وإخلاصا.

ولقد منح المولى عز وجل، هذا الإمام بصيرة واعية مستنيرة تنكشف لها الأدلة والعلل والحجج. وهذا قد أعانه على معارضة أهل البدع والأهواء، في بدعهم وأهوائهم. وكذلك قد ألف في دحض أقوال هؤلاء المبتدعة، وإظهار عيوبهم، ودحض شبههم:

"وبان فيما جمعه في ذلك وألفه الكذب من الصدق، حتى لو أن أصحابها أحياء، ووقفوا لغير الشقاق، لأذعنوا له بالتصديق، ودخلوا في الدين العتيق. ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما فيها، أن يحمد ا تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام، لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام[11]".

وقد بلغ من غيرة الرجل، على تطبيق الشرع، أن سار بنفسه مع بعض تلاميذه وأنصاره في دمشق، فكسروا أواني

---

[11] البزار: الأعلام العلية ص ٣٢ - ٣٣

الخمر من الحانات، وعزروا أصحابها. وكان هذا فـي أيـام نائب الشام سيف الدين قبجق، الذي انتشرت في عهده هـذه الحانات، وكانت موردا كبيرا من موارده المالية.

وفي اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى عام ٧٠٥ هـ وفد جماعة من الفقراء الأحمدية، إلى نائب السلطنة، وكـان ابن تيمية حاضرا فطلبوا من نائب السلطنة أن يكف عـنهم، ويسلم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ:

"هذا ما يمكن، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسـنة، قولا وفعلا، ومن خرج عليهما، وجب الإنكار عليه [١٢]".

ومعنى هذا أن ابن تيمية لم يكن معارضا لهـم، لمجـرد انتسابهم إلى هذه الفرقة أو تلك. لكنه كان يعارضهم نظرا لما يحدث منهم من أفعال خارجة عن الشرع.

٥-تنوع معارفه:

قد اهتم الشيخ منـذ صـغره، بدراسـة الخـط والعلـوم الرياضية. ثم تدرج باعتناء إلى دراسة العلوم الدينيـة، مـن

---

[12] الندوي: حياة شيخ الإسلام ٦٦

الفقه والأصول والفرائض والتفسير والحديث.

وكان اتجاهه نحو العلوم مبكرا، فلم يكن مثل غيره من الأطفال يلهو ويلعب. وهو بالرغم من هذا، لم يكن منفصلا عن الحياة والمجتمع.

ولقد درس معارف عصره التي تيسرت له. وبرع في اللغة والنحو براعة كبيرة، إلى حد أنه درس "الكتاب" لسيبويه، ثم انتقد مواضع ضعفه. وكان له إلى جانب هذا محفوظات عديدة من منثور كلام العرب ومنظومه.

ومن أجل هذا، لا نعجب إذا رأينا ابن تيمية، يسد في إلقاء الدروس مسد والده، وهو لما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، بحيث ترك تأثيرا عميقًا في نفوس الحاضرين، وبينهم كبار العلماء ثم توالت دروسه بعد ذلك موضحة أصول الدين، وهادمة للبدع والأهواء.

وقد اتفق كل الذين رأوا الشيخ من المخلصين له، على أن ا تعالى قد منحه معرفة اختلاف العلماء واجتهادهم في المسائل، والرأي الراجح والمرجوح، والمقبول والمردود، في كل زمان ومكان وعصر، مع نسبة كل قول لقائله، ولمكانه ومناسبته:

"حتى إذا سئل عن شيء من ذلك، كان جميع المنقول عن الرسول صلى ا عليه وسلم وأصحابه والعلماء فيـه مـن الأولين والآخرين، متصور مسطور بإزائه، يقول ما شاء ا ويذكر ما يشاء"[١٣].

ومن رأي ابن تيمية، أن العلم الحق لا يناله كل النـاس، ولا حتى كل المشتغلين به فهو يقول:

"و كم من ناظر مفكر، لم يحب العلم ولم ينله، كما أنه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره، ومسـتمع إلـى صـوت لا يسمعه" [١٤].

ولم يترك الشيخ كتابا تيسر له من كتب العلم، إلا وقـف عليه، لما خصه ا تعالى به من سـرعة الحفـظ وإبطـاء النسيان. فكل شيء يقرؤه أو يسمعه يبقى علـى خاطره،إمـا بلفظه وإما بمعناه وبذلك صار حجة على أهل عصره.

وحين سجن وحيل بينه وبين الكتب ألف كتاب "الصـارم المسلول" وغيره من الكتب الصغار والكبار، وكان اعتمـاده

---

[13]: الأعلام العلية ص ٢٥

[14] ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ١: ٢٣١

فيها على الذاكرة:

"ذكر فيها ما احتاج إلى ذكره، مـن الأحاديـث والآثـار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وعزى كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسـماء الكتب التي فيها ذلك، وفي أي موضع هو منها، كـل ذلـك بديهة من حفظه". [١٥]

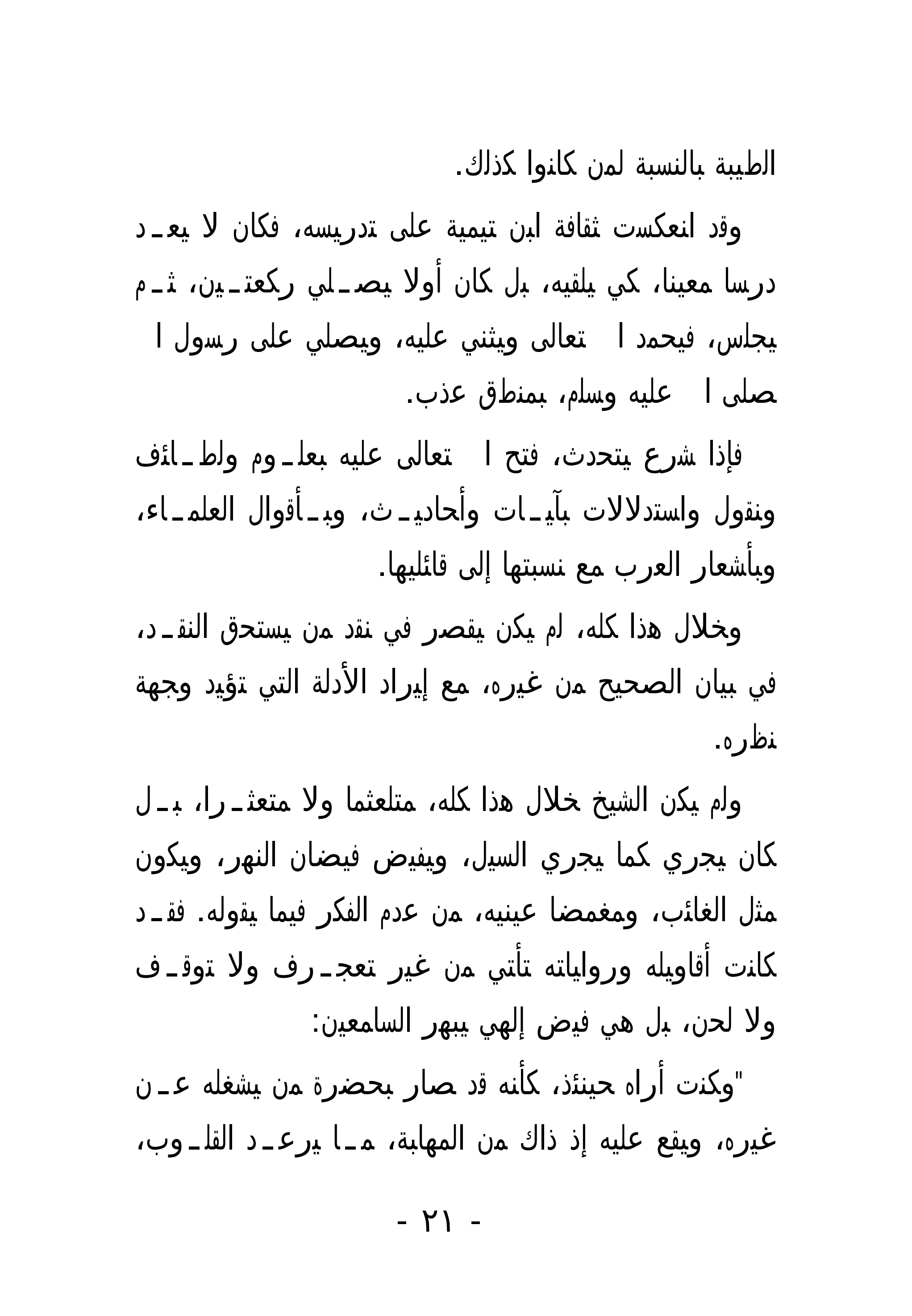
لقد شهد أحد المتخصصين في التاريخ، وهو الذهبي، بأن ابن تيمية كان على قدم في التاريخ فيقـول: "أمـا معرفتـه بالتاريخ والسير فعجب عجيب".

وبالرغم من أن التاريخ لم يكن من اختصـاص الشـيخ[١٦] فإن ثقافته بوجه عام تشير إلى أنه لم يكن يقف عنـد حـدود التخصص، بل كان مثل المرأة ذات الأوجه العديـدة التـي تسمح بانعكاس كل ما يبدو أمامها. ويتجلى ذلك فـي تعقبـه للمؤرخين والفلاسفة والصوفية والفقهاء وجميع فرق الغـلاة، ومحاولة كشف ضلال الضالين المضلين، وتوضيح المواقف

---

15 البزار: الأعلام العلية ص ٢٤

16 الندوي: حياة شيخ الإسلام ص ١٢٢



الطيبة بالنسبة لمن كانوا كذلك.

وقد انعكست ثقافة ابن تيمية على تدريسه، فكان لا يعـد درسا معينا، كي يلقيه، بل كان أولا يصـلي ركعتـين، ثـم يجلس، فيحمد ا تعالى ويثني عليه، ويصلي على رسول ا صلى ا عليه وسلم، بمنطق عذب.

فإذا شرع يتحدث، فتح ا تعالى عليه بعلـوم ولطـائف ونقول واستدلالات بآيـات وأحاديـث، وبـأقوال العلمـاء، وبأشعار العرب مع نسبتها إلى قائليها.

وخلال هذا كله، لم يكن يقصر في نقد من يستحق النقـد، في بيان الصحيح من غيره، مع إيراد الأدلة التي تؤيد وجهة نظره.

ولم يكن الشيخ خلال هذا كله، متلعثما ولا متعثـرا، بـل كان يجري كما يجري السيل، ويفيض فيضان النهر، ويكون مثل الغائب، ومغمضا عينيه، من عدم الفكر فيما يقوله. فقـد كانت أقاويله ورواياته تأتي من غير تعجـرف ولا توقـف ولا لحن، بل هي فيض إلهي يبهر السامعين:

"وكنت أراه حينئذ، كأنه قد صار بحضرة من يشغله عـن غيره، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة، مـا يرعـد القلـوب،

ويحير الأبصار والعقول"[17].

٦- تأليفه:

لم يكن ابن تيمية يسمح لأي ظرف، أن يعطله عن الكتابة، وكأنه كان يعتبر التأليف ضربا من الجهـاد ولا سـيما فـي الأحوال العصيبة.

وفي السجن منع من الكتابة، وجرد من القلم والدواة. لكنه تحدى هذا الموقف، فبدأ يكتب بالفحم، على أوراق مبعثرة هنا وهناك.

وقد عثر على بعض الكتابات والرسائل مما كتبه بالفحم، أيام سجنه، وقد ظلت محفوظة على حالتها تلك.

ولقد صدر المرسوم في التاسع من جمادى الآخرة عـام ٧٢٨هـ بمصادرة أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ. وفـي شهر رجب حاولوا إكمال ما بدأوه، فحملوا جميع مسـوداته وأوراقه من المجلس إلى المكتبة الكبرى، وكانت نحو سـتين مجلدا من الكتب، وأربع عشرة ربطة كراريس ممـا كـان

---

[17] البزار: الأعلام العلية ص ٢٩ .

يشتغل به دراسة وتأليفا.

وكان كثير من العلماء، قبل ظهور ابن تيمية، يشكون من انغلاق أقوال الأصوليين، ومـن عـدم تفهـم معقـولاتهم، ووقوعهم بسببها في الحيرة والضلال. ومن هنا كـان مـن الواجب على كل كاتب أن يعلم أن أهم صـفات الأسـلوب: البساطة والوضوح[١٨]".

فلما من ا تعالى على العلماء، بمطالعـة كتـب شـيخ الإسلام، ورأوها موافقة للعقل والشرع، انجلـى مـا انغلـق عليهم من أصول هذا الفن. وفي هذا يقول البزار:

"ومن أراد اختبار صحة ما قلته، فليقف بعين الإنصـاف العرية عن الحمد والانحراف، إن شاء، على مختصراته في هذا الشأن، كشرح الأصبهانية ونحوهـا، وإن شـاء علـى مطولاته، كتلخيص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقـة بين العقل والنقل ومنهاج الاستقامة والاعتـدال، فإنـه وا يظفر بالحق والبيان، ويستمسك بأوضح برهان، ويزن حينئذ

---

[18] د. عبد ا محمود سليمان: المنهج وكتابه تقرير البحث في العلوم السلوكية ص ١٣٩ مكتبة الأنجلو المصرية .

ذلك بأصح ميزان [19]".

وقد بلغ من إخلاص الرجل وذكائه أنه كان يركـز فـي تأليفه على الأصول دون الفروع. وحين سأله أحد معارفـه، أن يؤلف كتابا في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته، ليكـون عمدة في الإفتاء، رفض أن يفعل ذلك وقال لصاحبه:

"الفروع أمرها قريب، فإذا قلد المسلم فيها أحـد العلمـاء المقلدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه [20]."

فهو إذن يجيز التقليد في الفروع دون الأصـول، فتفـرغ لبحث الأصول. وقد لاحظ بما لديه من واسع المعرفـة، أن الغلاة والملاحدة، يحاولون ضرب الإسلام من جهة الأصول.

ومن هؤلاء أهل البدع والضلالات والمتفلسفة والباطنيـة والدهرية والقدرية والنصرية والجهمية والحلولية والمعطلـة والمجسمة وغير ذلك.

ويقول ابن تيمية عن موقف هؤلاء:

"بان لي أن كثيرا منهم، إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة

---

[19] البزار: الأعلام العلية ٣٣

[20] المصدر السابق: ص ٣٣ - ٣٤

المحمدية الظاهرة على كل دين، العلية، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة، مقبلا على مقـولاتهم، إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه أو اعتقاده"[٢١]

ومن الجدير بالذكر أن كتب ابن تيمية التـي ألفهـا هـي موضع ثقة لدى الدارسين، وقد يتخذ بعضـها مثـالا لأهـم مصادر البحث في موضوع ما من الموضوعات[٢٢].

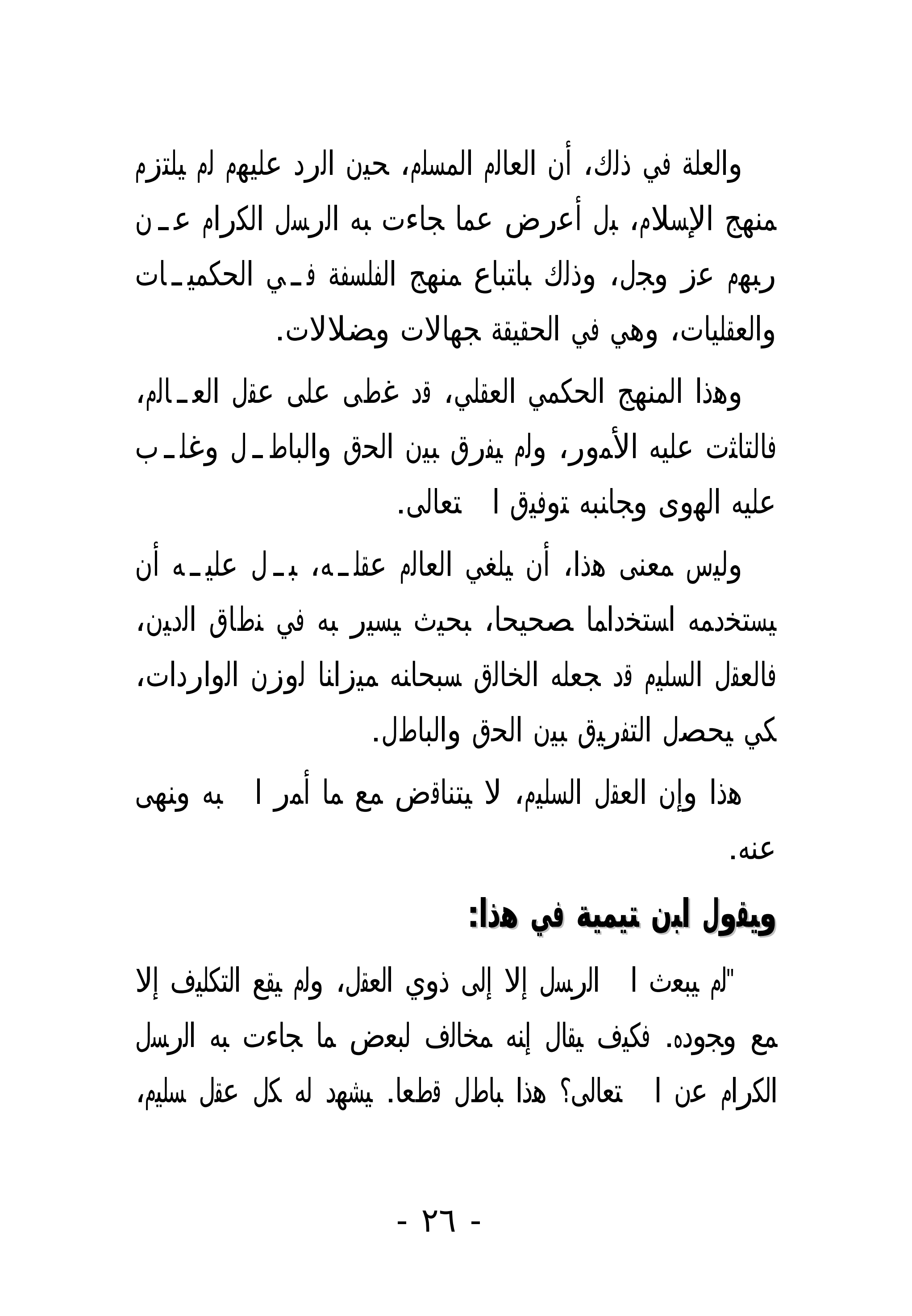
ومن هنا صار من واجب العلماء حقا، أن يـدفعوا شـبه وأباطيل هؤلاء القوم، وأن يكشفوا زيفهم، ويدحضوا حججهم، وفي ذلك ما فيه من الذود عن الإسلام وكتابه الكريم وسـنته المطهرة وحزبه الطاهرين.

ويلقي ابن تيمية باللوم على العلماء الذين تصدوا لرد شُبه هؤلاء الملاحدة. فلم يكن ردهم مقنعا، بل إن مضمون كلامهم يساعد على هدم قواعد الإسلام.

---

[21] المصدر السابق ص ٣٤ .

[22] دكتورة سيدة إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ص ٨٠ ط ٢ ١٣٩٦ _ ت – ١٩٧٦ م مكتبة الخانجي بالقاهرة .



والعلة في ذلك، أن العالم المسلم، حين الرد عليهم لم يلتزم منهج الإسلام، بل أعرض عما جاءت به الرسل الكرام عـن ربهم عز وجل، وذلك باتباع منهج الفلسفة فـي الحكميـات والعقليات، وهي في الحقيقة جهالات وضلالات.

وهذا المنهج الحكمي العقلي، قد غطى على عقل العـالم، فالتاثت عليه الأمور، ولم يفرق بين الحق والباطـل وغلـب عليه الهوى وجانبه توفيق ا تعالى.

وليس معنى هذا، أن يلغي العالم عقلـه، بـل عليـه أن يستخدمه استخداما صحيحا، بحيث يسير به في نطاق الدين، فالعقل السليم قد جعله الخالق سبحانه ميزانا لوزن الواردات، كي يحصل التفريق بين الحق والباطل.

هذا وإن العقل السليم، لا يتناقض مع ما أمر ا به ونهى عنه.

ويقول ابن تيمية في هذا:

"لم يبعث ا الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده. فكيف يقال إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن ا تعالى؟ هذا باطل قطعا. يشهد له كل عقل سليم،

لكن:﴿**من لم يجعل ا ُ له نُورا فَما لَه مِن نُور**﴾ "[٢٣].

وهذا ما دعا ابن تيمية، إلى سد هذا النقص الكائن في ردود العلماء على الغلاة والملاحدة، مستعرضا كل شبهة، ورادا عليها بالدلائل النقلية والعقلية. ويقول البزار عن موقف ابن تيمية في هذا المجال.

"الحمد الذي من علينا برؤيته وصحبته، فلقد جعلـه ا حجة على أهل هذا العصر، المعرض غالب أهله عن قليلـه وكثيره، لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخـرة. فلا حول ولا قوة إلا با لكن ا ذا القوة المتين حفظ هـذا الدين إلى يوم الدين، وأظهره على كل دين[٢٤]".

وبذلك يتلخص منهج التأليف عند ابن تيمية فيما يلي:

١- السهولة، وذلك بخلو مؤلفاته من الجفاف والتعقيد.

٢- استقصاء مادة البحث من مصادر عديدة.

٣- التركيز على الأصول، لمعرفته بمقاصد الشريعة.

٤- قوة الاستدلال، مع حسن الاستشهاد بالكتاب والسنة.

---

[23] البزار: الأعلام العلية ص ٣٥

[24] المصدر السابق ص ٣٦

٥- فيضان الكتابة بالحيوية، لارتباطها بالحياة.

٦- مخاطبة العقل، دون الثقة فيه ثقة مطلقة.

٧- عدم التعصب، من أجل الوصول إلى الحقيقة[٢٥].

٨- النقد البناء، وذلك بفحص كل ما يقرأ فحصا سـليما وإدراك محاسنه وعيوبه[٢٦].

٧- إفتاؤه:

وقد تابع ابن تيمية دراسة أصول وفروع الفقه الحنبلـي، وذلك منذ نشأته. ولم يكن الأمر غريبا عليه أو بعيـدا منـه، حيث كان أبوه هو أستاذه في هذا الجانب ومن قبل كان جده من أعلام الحنابلة.

وبالرغم من أن الشيخ كان حنبلي المذهب مثـل أسـرته، فإنه لم يتقيد بالمذهب الحنبلي تماما، بل كان يـرجح بعـض

---

25 محمد أبو زهرة: ابن تيمية ٢١٣ – ٢١٨ دون تاريخ – دار الفكر العربي بمصر.

26 قارن أهم صفات الباحث / د. عمر عودة الخطيب: لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص ٩١ – ٩٢ ط ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م دار القلم – دمشق .

الآراء القريبة إلى الكتاب والسنة. كما كان يضيف اجتهـاده الخاص، بعد اطلاعه العريض. وهـذا مـا جعـل النـاس يستفتونه، فيجيبهم بأجوبة شافية كافية.

إن الكتاب والسنة، في رأي ابن تيمية، هما مقياس الأمـر والنهي، والصواب والخطـأ. فإليهمـا المرجـع فـي كـل المشكلات. وقد تكون هذا الرأي لدى ابن تيمية، بعد إمعـان وكثرة متابعة للكتاب والسنة:

"ولهذا لا يرى في مسألة أقوال العلمـاء، إلا وقـد أفتـى بأبلغها موافقة للكتاب والسنة. وتحري الأخذ بأقومهـا، مـن جهة المنقول والمعقول[٢٧]".

ولما كان الشيخ محبوسا في مصر، لم يكف الناس عـن زيارته واستفتائه. وكانوا يأتون إليه بالفتاوى المشكلة، التـي لم يقدر الفقهاء على حلها. فكان يجيب عليهـا بمـا يحيـر العقول، مع الاستدلال بالكتاب والسنة.

وقد خلف ابن تيمية، فتاوى عديدة، ونصوصـا وأجوبـة على مسائل كثيرة، يصعب إحصاؤها.

---

[27] البزار: الأعلام العلية ص ٧٠

وقد دون منها بمصر على أبواب الفقـه، سـبعة عشـر مجلدا. كذلك جمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة. وكل هذا قد أجاب عليه بداهة، بما بهر واشتهر لدى الناس جميعا:

"وصار ذلك الجواب، كالمصنف، الذي يحتاج فيه غيـره إلى زمن طويل، ومطالعة كتب، وقد لا يقدر مع ذلك علـى إبراز مثله [٢٨]".

٨-مخاصمة بعضهم له:

من المسلم به أن كل شخصية لمعت وامتازت عن غيرها، قد لقيت عنتا ومعارضة شديدة من المنافسين والحاقدين. ولا بد أيضا أن يوجد لهذه الشخصية مؤيدون وأنصـار، حيـث تنكشف أمامهم جوانب خير وفضل لتلك الشخصية.

والخلاصة أن وجود الأنصار والمناوئين، يصـير دلـيلا على عظمة الشخصية المختلف حولها، وعلى سعة الميـدان الفكري الذي خلفته بعدها.

وعلى هذا فقد سجل التاريخ أسماء بعض الـذين أحبـوا

[28] المصدر السابق ص ٢٨ .

الشيخ فكانوا من أعوانه مثل:

الحافظ الذهبي، المزي، البرزالي، ابن كثيـر، ابـن قـيم الجوزية، الفزاري، ابن رشيق، خالـد الزاهـد، الزرعـي، الجزري. وغيرهم كثير.

كما سجل التاريخ بعض أسماء من مخاصميه مثل: ابـن جهيل، تقي الدين السبكي، السروجي، الأخنائي، ابن المرحل، المنبجي، ابن مخلوف[٢٩].

وقد كان شيخ الإسلام، صاحب المستوى الأعلى في الفكر والعلم، وهذه نعمة ومنحة من الخالق العظيم. وهذه النعمـة تستلزم، أن يصبح صاحبها في ابتلاء مستمر، لمـا يعانيـه معاصروه من تفوقه عليهم، فيحـاول أصـحاب الضـمائر الضعيفة، أن يفتحوا له أبواب الشر والأذى والسجن [٣٠].

ولقد كانت تحقيقات الشيخ، لمسائل تفرد بها عـن أئمـة المذاهب المشهورة، سببا في إثارة المعارضة ضده.

ولا نكر لدى العاقل المطلع، على هذه التفردات بأي حال،

---

[29] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦: ٨١ - ٨٦

[30] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦: ٨١ - ٨٦

لأنه يعلم أن كثيرا من الأئمة والعلماء، لم يخل واحد منهم من هذه التفردات. غير أن التفرد شرط أساسي لمثل هذا العالم الفذ، إذ أعانة على محاربة أعداء الإسلام، من أهل الملل والنحل الأخرى، فقد تدرب على أسلحتهم، وحاربهم بها، ذودا عن حمى الإسلام والمسلمين.

ومع هذا فإن ابن تيمية، بما أوتي من قوة الشخصية وتنوع المعارف، كان موضع خلاف ما بين محب وقادح. فبينما يراه بعضهم نصير الدين، ينظر إليه بعضهم على أنه مارق عن الجماعة.

وقد بالغ بعض الحاقدين عليه، فنسب إليه أقوالا توجب الكفر، كما نسب البعض الآخر إليه آراء تحط من شأن صاحب النبوة العظمى [٣١]. غير أن الإنسان العاقل المتزن، لا يأخذ الدعوة على ظاهرها في كل الأحوال، بل إن هناك دوافع خفية ومغالطات متعمدة في مجال الخصومات.

ويروي التاريخ، أن ابن تيمية، كان مشغولا يوما ما بإلقاء بعض دروسه، وكان الجميع مقبلين عليه. فقامت عليه ضجة

---

[31] الندوي: حياة شيخ الإسلام ١٤٨ .

عام ٦٩٨هـ تستهدف شخصه وعقيدته.

ذلك أن بعض أهل "حماه" سألوه عن تحقيق العلماء في الصفات التي وصف بها الله تعالى ذاته في مثل: ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقد أجابهم الشيخ بأجوبة مقنعة عرفت باسم "العقيدة الحموية الكبرى".

لكن لم يزل المبتدعون من أهل الأهواء، متعاضدين على الفتك به، وناسبين إليه ما لم يقله، دون أن يراقبوا الله تعالى في هذا الاتهام.

لقد عز على هؤلاء، أن يروا رجلا، من أعظم الناس وأقواهم اتباعا للحق. لكن الإنسان متى شغلته الدنيا، فجرى وراء مناصبها دون حق أو كفاءة شخصية، لم يبعد عليه أن يقوم بأي عمل مشين:

"وعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه، والوقوع فيه، خصوصا عند الأمراء والحكام، وإظهارهم الإنكار عليه، فيما يفتي به من الحلال والحرام، فشققوا قلوب الطغام، بما اخترصوه من زور الكلام، ونسوا أن لكل قول مقاما، بين يدي أحكم الحكام، يسأله: هل قلته بحق أو بذم؟. فيجازي

المحقّ دار السلام، والمبطل دار الانتقام". [٣٢]

٩- اهتمامه بالعبادة:

إن كل أحوال ابن تيمية، تشير إلى أنه كان من عبـاد ا الأوابين المنيبين، وأنه كان يتحلى باليقين والمشاهدة.

ولم يكن يسأل إلا ربه، ولا يشكو إلا إليه سبحانه وتعالى. وكان إذا أشكلت عليه مسألة أو آيـة، التجـأ إلـى مسـجد مهجــور، ووضــع جبهتــه علــى التــراب مــرددا: "يا معلم إبراهيم علمني". ويقول البزار عن استغراق الشـيخ في العبادة:

"كان رضي ا عنه، كثيرا ما يرفع طرفه إلى السـماء، لا يكاد يفتر عن ذلك، كأنه يرى شيئا يثبته بنظره. فكان هذا دأبه مدة إقامتي بحضرته. فسبحان ا ما أقصر ما كانت! يا ليتها كانت طالت. ما مر على عمري إلى الآن زمان كـان أحب إلي من ذلك الحين، ولا رأيتني في وقت أحسن حـالا مني حينئذ[٣٣].

---

[32] البزار: الأعلام العلية ٦٧ – ٦٨ .

[33] البزار: الأعلام العلية ص ٤٠ .

وكان الشيخ ذا ذوق خاص في العبادة والمناجاة والخلوة، مع شدة شغف وانهماك، مما جعله أرفع من مستوى عامـة الناس في ذلك.

ولقد كان يقضي ليله ضارعا متفردا، ساهرا على تـلاوة القرآن الكريم. ومع هذا كان يواظب على صلاة الفجر مـع الناس.

"أما تعبده رضي ا عنه، فإنه قل أن سمع بمثله، لأنـه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى أنه لم يجعل لنفسـه ساعة تشغله عن ا تعالى" [٣٤].

وكان من حال الشيخ أن يرتعد وقت دخوله في الصلاة، ويمد قراءته ويكمل الركوع والسجود، ويخفف جلوسه للتشهد الأول خفة شديدة. وبعد الصلاة يثني على ا تعالى بما هـو أهله، ثم يسبح ويحمد ا تعالى بما هو أهله، ثم يسبح ويحمد ا تعالى ثلاثًا وثلاثين، ويختم المائة بالتهليل، ثـم يـدعوه لنفسه وللمسلمين.

كذلك كان من عادة الشيخ، أن يقرأ الفاتحة ويكررها، من

---

[34] المصدر السابق ٣٧ .

الفجر إلى ارتفاع الشمس. وهو يقصد بذلك الجمع بـين مـا ورد في الأحاديث. وما ذكره العلماء، من اسـتحباب تقـديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن، تحصيلا للفضيلتين.

وبعد هذا يدعو ا تعالى سائلا إياه الرحمـة والمغفـرة والرضوان. و كان لا يحب أن يكلمه أحد في ذلك الوقت إلا لضرورة. فلا يزال في الذكر وتقليب البصر نحو السـماء، حتى ترتفع الشمس، وهو وقت النهي عن الصلاة.

وبعد ذلك يعمر مجلسه بالصغير والكبير والحر والعبـد، وقد وسعت نفسه كل الحاضرين، فيخرج كل منهم، وهو يظن أن الشيخ لم يكرم أحدا بمثل ما أكرمه، ويظل هكذا بين عبادة وعلم، حتى يصلي العشاء.

"وكان من الإقبال على العلوم، إلى أن يذهب هوى مـن الليل طويل. وهو في خلال ذلك كله، في النهار والليـل، لا يزال يذكر ا تعالى ويوحده ويستغفره" [٣٥].

وهكذا شأن العالم الحق، لا ينسى ربه ولا يهمل علمـه، ولا يقصر في أداء واجبه.

---

[35] المصدر السابق ٣٩ .

١٠- مخالطته للناس:

كان ابن تيمية، يؤدي الصلاة فرضا ونافلـة، فـإذا أراد سماع حديث في مكان آخر، تقدم إليه مسرعا مع أصحابه.

وكان كثير من النـاس وأصـحاب الحوانيـت يتركـون أعمالهم، ويهرعون للترحيب به. ومع أن هؤلاء كانوا كثرة، فإنه كان يعطي كلا منهم حقه من السلام وافرا.

ولم يكن يترك في طريقه منكرا إلا أزاله، ولا جنـازة إلا صلى عليها، فإذا فاتته ذهب إلى قبر صاحبها، فصلى عليـه بعد فراغه من سماع الحديث، ثم يرجع إلى المسجد.

"لا يزال تارة في إفتاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم، حتى يصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه[٣٦]".

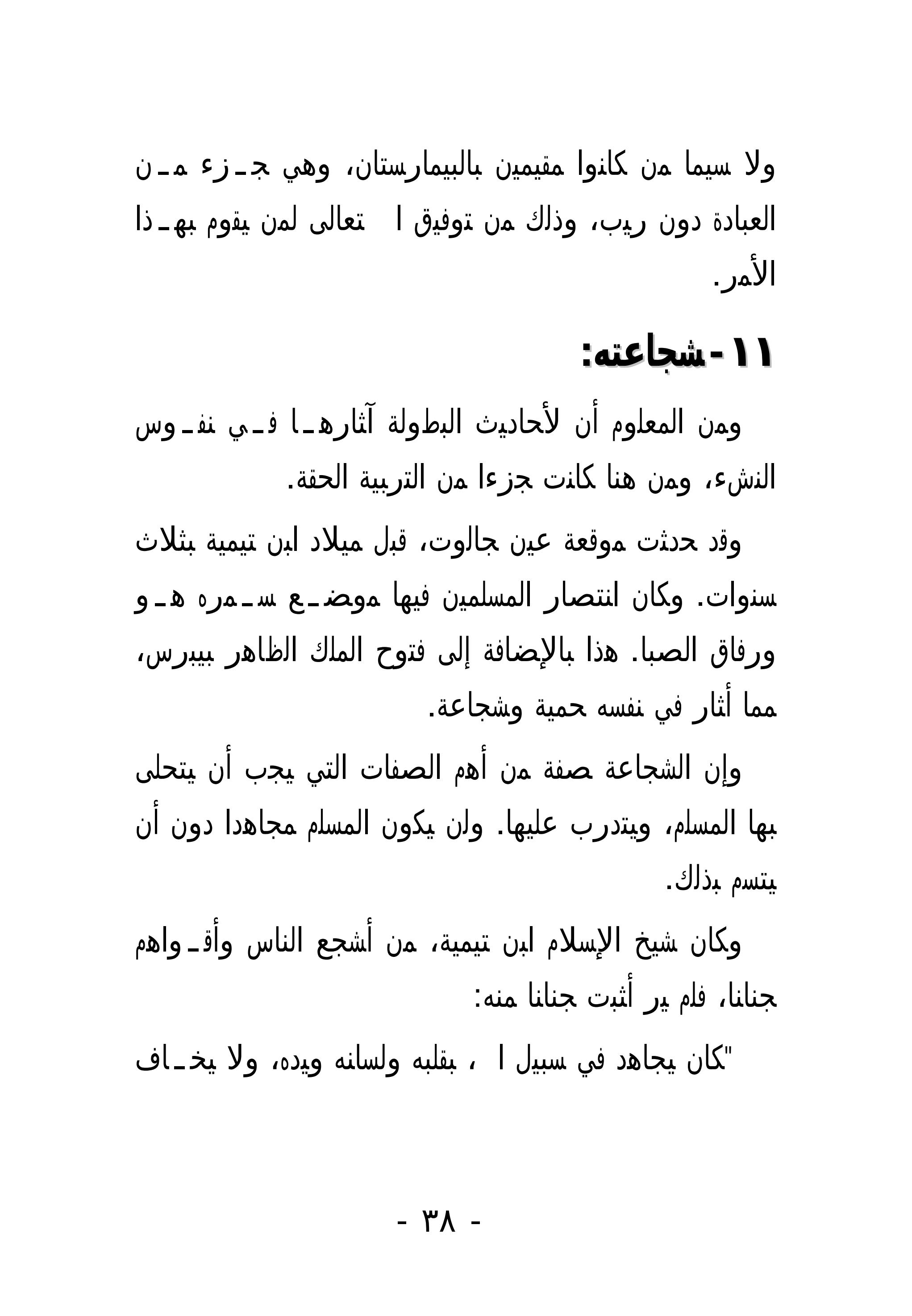
وإذا كانت عيادة المريض خلقا رفيعا من أخلاق الإسـلام الحنيف، فقد كان ابن تيمية أحرص الناس على الأخذ بهـذه الأخلاق الرفيعة.

فقد خصص الشيخ يوما في كل أسبوع[٣٧] لزيارة المرضى،

---

[36] المصدر السابق ٣٩ .

[37] المصدر السابق ص ٤٠ .


ولا سيما من كانوا مقيمين بالبيمارستان، وهي جـزء مـن العبادة دون ريب، وذلك من توفيق ا تعالى لمن يقوم بهـذا الأمر.

١١-شجاعته:

ومن المعلوم أن لأحاديث البطولة آثارهـا فـي نفـوس النشء، ومن هنا كانت جزءا من التربية الحقة.

وقد حدثت موقعة عين جالوت، قبل ميلاد ابن تيمية بثلاث سنوات. وكان انتصار المسلمين فيها موضـع سـمره هـو ورفاق الصبا. هذا بالإضافة إلى فتوح الملك الظاهر بيبرس، مما أثار في نفسه حمية وشجاعة.

وإن الشجاعة صفة من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها المسلم، ويتدرب عليها. ولن يكون المسلم مجاهدا دون أن يتسم بذلك.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية، من أشجع الناس وأقـواهم جنانا، فلم ير أثبت جنانا منه:

"كان يجاهد في سبيل ا ، بقلبه ولسانه ويده، ولا يخـاف

في ا   لومة لائم[٣٨]".

وهو بهذا يكون قد استوعب أهم شروط الجهـاد، وأهـم صفاته والتي يذود بها المؤمن عن الحق، ويرعى حـدود ا تعالى.

وحينما ظهر السلطان غازان على دمشق، جـاءه ملـك الكُرج، وبذل له أموالا كثيرة، كي يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق.

فلما علم الشيخ بذلك، قام من فوره، ورغب المسلمين في الشهادة، ثم ذهب إلى السلطان، مع بعض وجهاء القوم، فتقدم الشيخ، فلما أن رآه السلطان، أوقع ا   تعالى له في قلبه هيبة عظيمة، فأطاع الشيخ، وحميت دماء المسلمين وحريمهم.

وفي نفس المجلس، أخذ الشيخ يحدث السـلطان بالعـدل الوارد في قوله ا   تعالى، وقول رسـوله صـلى ا   عليـه وسلم، فبلغ بذلك قمة الشجاعة.

وكان الشيخ إذا حضر في جهاد مع المسـلمين، شـجعهم وثبتهم وبشرهم ووعدهم بالنصر والظفر. ثم يجول في العدو

---

38 المصدر السابق ٦٣ .

كأعظم الشجعان. وقد كان رحمه ا تعالى في فـتح عكـة، مضرب المثل في الإقدام، وكانت جولاته وتصرفاته، سـببا من أسباب تماك المسلمين لعكة وتمكنهم منها[٣٩].

١٢- تواضعه

كان الشيخ يتسم بالتواضع في حضوره ومغيبه، وقيامـه وقعوده، وجلوسه ومشيه.

ولم يعرف السأم إليه طريقا، إذا سئل أو استفتي. وكـان يقبل على محدثه ببشاشة ولين، ولا يغادر المكان حتى يغادره المستفتي: صغيرا أو كبيرا، عبدا أو حرا، عالما أو جـاهلا. ويظل يحدثه حتى يفهمه جواب سؤاله بأدب ولطف وتواضع.

ويحكي بعض معاصريه، عن تواضعه، الشيء الكثيـر، وأنهم ما رأوا ولا سمعوا بأحد من أهل عصره، يتحلى بهـذا التواضع، الذي يتحلى به الشيخ.

وكان تواضعه عاما، بحيث يشمل الغني الصالح والفقير، والكبير والصغير، والجليل والحقير. وقد بـرزت مظـاهر

[39] المصدر السابق ٦٣- ٦٤

تواضعه مع الفقير بصورة رائعة، إن هي إلا أخلاق الإسلام الحنيف.

"وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المستحلى، زيادة على مثله من الأغنياء، حتى أنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته، جبرا لقلبه، وتقربا بذلك إلى ربه" [٤٠].

ويمكن فهم تواضع الشيخ أيضا، من معاملته لأصحابه وإكرامه لهم. فلم يكن يذكر أحدهم باسمه، بل يلقبه بأحسن الألقاب، مع إظهار التبجيل والإدناء منه.

وعندما كان يعارض البخاري، على بعض النسخ، كان يخرج من منزله وهو يحمل النسخة بنفسه، ولا يدع أحدا من أصحابه يحملها عنه. ولما أخذ أحد أصحابه في القراءة، جلس هو تحت الكرسي، وترك صدر المجلس.

"وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام، لكل من يرد عليه، أو يصحبه، أو يلقاه. حتى أن كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحوا مما حكيته، وأكثر من

[40] البزار: الأعلام العلية ٤٨ .

ذلك. فسبحان من وفقه وأعطاه، وأجبره على خـلال الخيـر وأمضاه"[٤١].

ومن المعروف عن الشيخ، أنه كان يهب نفسه لدرسه هبة كاملة، بحيث يستغرق كل حواسه، وفي ذلك من الإخـلاص قدر كبير.

لكنه بعد الفراغ من الدرس، كان يقبل علـى الجالسـين بوجه طلق ملؤه البشاشة والدماثة، وكأنه يلقى هـؤلاء لأول مرة.

وبالرغم من أن درسه كبير الكم، إذ يملأ عدة كـراريس، فإنه قد يعتذر إلى بعض الحاضرين، من التقصير في المقال. ويقول عنه البزار في هذا المقام:

"هذا الذي ذكرته من أحوال درسه، أمر مشهود، يوافقني عليه كل حاضريه، وهم بحمد ا خلق كثير ولـم يحصـر عددهم: علماء ورؤساء وفضلاء، من القـرآن والمحـدثين والفقهاء والأدباء، وغيرهم من عوام المسلمين[٤٢]".

---

[41] المصدر السابق ٤٩ .

[42] المصدر السابق ٣٠ .

١٣-كرمه:

لم يثبت أن ابن تيمية، قد شد على دينار أو درهم، بل كان يجود بذلك كله. وكان لا يرد سائله بحال، فإن لم يكن لديه نقود، دفع إليه شيئا من ثيابه.

"كان رضي ا عنه، مجبولا على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه، بل هو سجية" [٤٣].

وكان مخلصا في كرمه وجوده بالميسور، كائنا ما كان. وقد كان مارا يوما في بعض الأزقة، فعرف حاجة أحد الفقراء، ولم يكن معه شيء، فنزع ثوبا من فوق جلده ودفعه إليه، وقال له: بعه بما تيسر وأنفقه، واعتذر إليه بأنه لم يكن لديه نقود.

ومن مظاهر كرم الشيخ، أنه قد جاءه إنسان ذات مرة، فسلم عليه. فرآه الشيخ محتاجا إلى ما يعتم به، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك، فقطعها نصفين، واعتم بنصفها، ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل.

---

[43] المصدر السابق ٥٩ .

ولقد كان الكرم سجية لهذا العالم المسلم، الذي تخلق حقـا بأخلاق الإسلام. وصار هذا الخلق مشهودا لدى معاصريه.

"وحكي غير واحد، ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار، وتفقد المحتاجين والغرباء، ورقيقي الحال مـن الفقهـاء والقـراء، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم، ومساعدته لهم، بل لكـل أحد من العامة والخاصة، ممن يمكنه فعل الخير معه، وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله [٤٤]".

وقد تخلق الشيخ بأخلاق النبي صلى ا عليه وسلم، فـي كثرة الكرم. فقد كان صلى ا عليه وسلم، لا يمنـع سـائلا يسأله. وقد روي أن رجلا سأل النبي عليه الصلاة والسـلام شملته، لتصير كفنا له، فأعطاها إياه.

وهكذا كان ابن تيمية يعطي من يسأله متخلقا بهذا الـنهج العظيم وذلك حين أعطى السائل نصف عمامته.

وكان يستفضل من قوته القليل، رغيفا أو اثنين، ويمضي بذلك في كمه، فيدفعه إلى فقير في الخفاء.

وأثر عنه أنه كان لا يرد أحدا يسأله شيئا من كتبـه، بـل

---

[44] المصدر السابق ٤٨ .

يطلب منه أن يأخذ بنفسه ما يشاء وما يختار.

ورأى أحدهم بين كتب الشيخ مصحفا غالي الثمن، فأخذه ومضى، دون أي اعتراض من الشيخ، إذ كان ينكر كثيرا على من يمنع كتب العلم عن الناس[٤٥]".

١٤-منزلته:

إن شيخ الإسلام ابن تيمية، أحد المنارات التي وهبها الله تعالى للمسلمين، في مسيرة الحق والحرية. وإن المرء لا يملك سوى الإعجاب بأمثال هذه الشخصيات، التي كانت نتاج تعاليم الإسلام.

ويقول هنري لاووست عن ابن تيمية في ذلك إنه:

"جزء من تاريخ الإسلام السياسي، بقدر ما هو جزء من تاريخ الإسلام الفكري [٤٦]".

وإن كل من يدرك حقيقة هذا الرجل، وما قام به من ذود عن الإسلام، لا يملك إلا تمجيده، كما روي عن الحافظ

---

45 البزار: الأعلام العلية ٦١- ٦٢

46 هنري لاووست: نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع ١: ١٢١ .

الذهبي أنه قال فيه:

"لو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه[٤٧]".

ويقول أحد معاصريه وهو البزار داعيا له:

"جزاه ا أحسن الجـزاء، عـن الإسـلام والمسـلمين، وسبحان من أعطاه ما أولاه، ومده بحسن التوفيق إلـى مـا هداه، وأعانه بالصبر الجميل إلى أن توفاه، ورضـي عنـه وأرضاه [٤٨]".

[47] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٦: ٨١ – ٨٢ المكتب التجاري – بيروت . د . صلاح الدين المنجد: شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١ ط ١٩٧٦ .

[48] الأعلام العلية ٧٦ .

١٥- إخلاصه قولا وعملا:

إن الإخلاص روح الأعمال كلها، ولهذا اهتم الشيخ بـه، لأن النية المجردة من العمل يثاب المرء عليها، أمـا العمـل المجرد عن النية فإنه لا يثاب عليه، ومن هنا كان الإخلاص مناط الثواب وهو يردد في الفتاوى الكبرى:

"قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأئمـة، أن مـن عمـل الأعمال الصالحة، بغير إخلاص ، لم يقبل منه ذلك".

لقد كانت خصلة الإخلاص تعالى سمة شائعة، لدى ابن تيمية، وتبدو مظاهرها في كل تصرفاته قولا وفعلا [٤٩]. وكان من ثمار ذلك أن أكرمه ا تعالى، ونجاه من كل المؤامرات والشرور التي حيكت حوله ودبرت له.

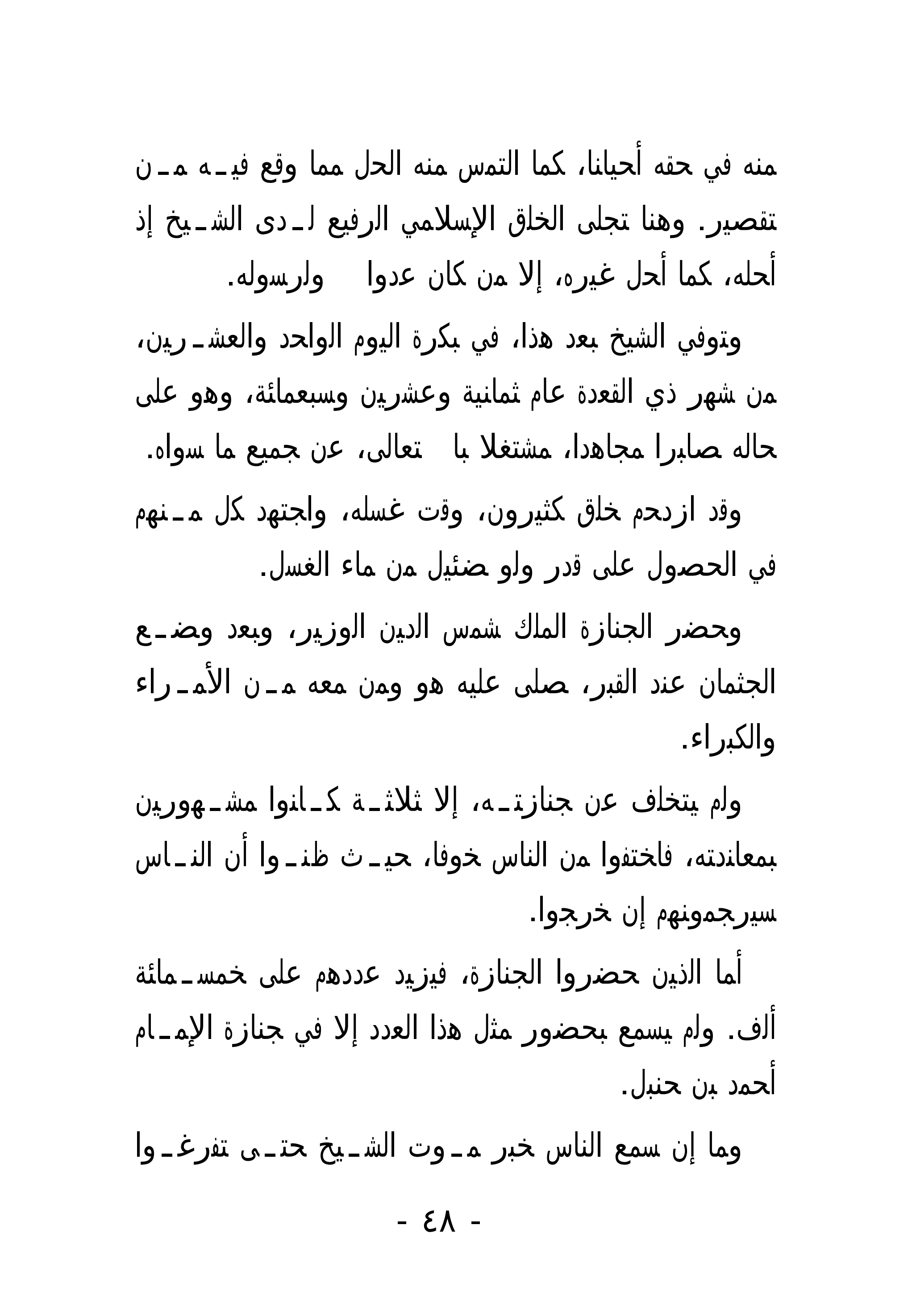
١٦- وفاته:

عاش الشيخ ما عاش مناضلا مخلصا تعالى، ثم داهمه المرض أياما يسيره.

وقد زاره الملك شمس الدين بدمشق، واعتذر إليه عما بدر

---

[49] محمد أبو زهرة: ابن تيمية ص ١٠٢



منه في حقه أحيانا، كما التمس منه الحل مما وقع فيـه مـن تقصير. وهنا تجلى الخلق الإسلامي الرفيع لـدى الشـيخ إذ أحله، كما أحل غيره، إلا من كان عدوا   ولرسوله.

وتوفي الشيخ بعد هذا، في بكرة اليوم الواحد والعشـرين، من شهر ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة، وهو على حاله صابرا مجاهدا، مشتغلا با   تعالى، عن جميع ما سواه.

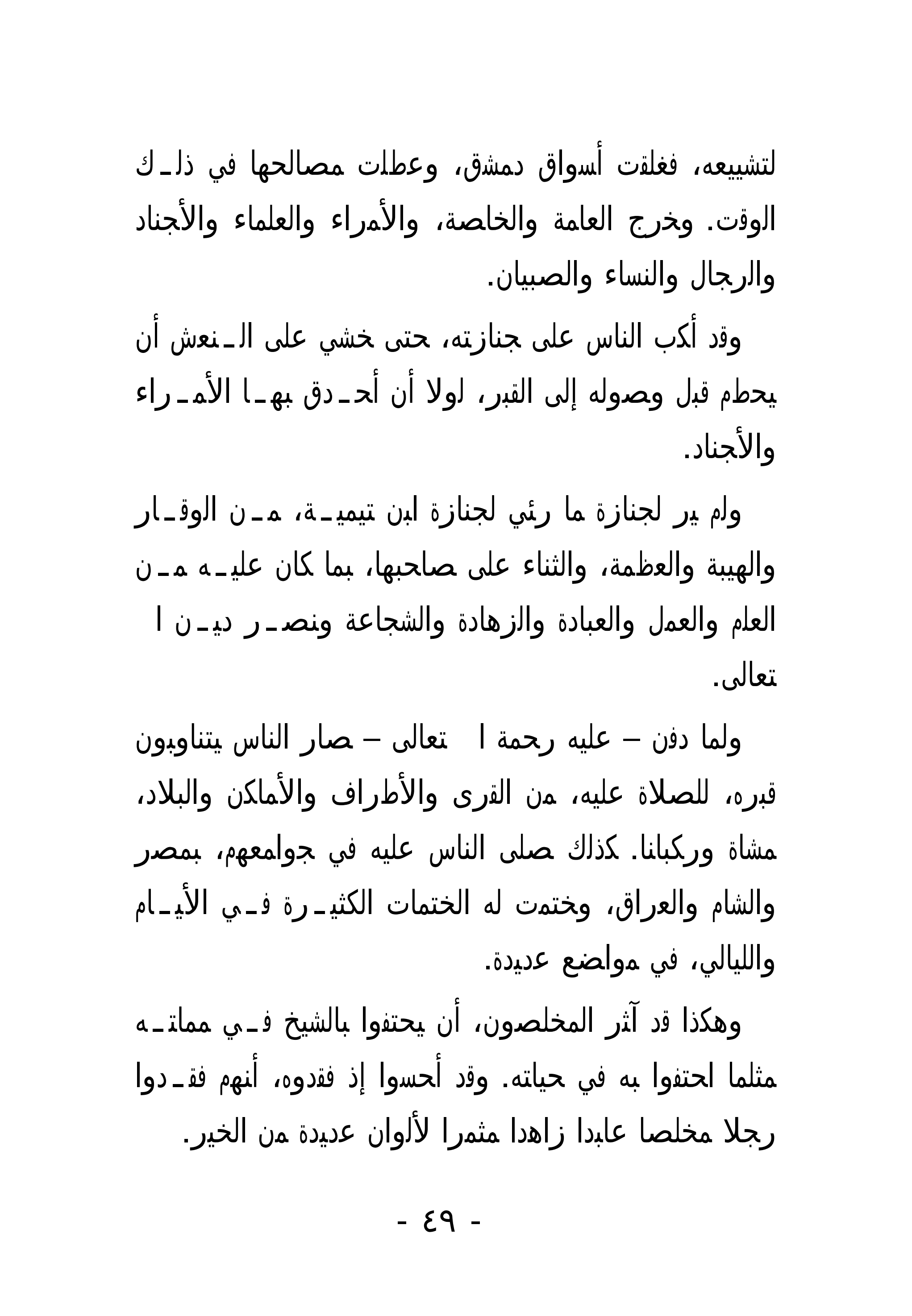
وقد ازدحم خلق كثيرون، وقت غسله، واجتهد كل مـنهم في الحصول على قدر ولو ضئيل من ماء الغسل.

وحضر الجنازة الملك شمس الدين الوزير، وبعد وضـع الجثمان عند القبر، صلى عليه هو ومن معه مـن الأمـراء والكبراء.

ولم يتخلف عن جنازتـه، إلا ثلاثـة كـانوا مشـهورين بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفا، حيـث ظنـوا أن النـاس سيرجمونهم إن خرجوا.

أما الذين حضروا الجنازة، فيزيد عددهم على خمسـمائة ألف. ولم يسمع بحضور مثل هذا العدد إلا في جنازة الإمـام أحمد بن حنبل.

وما إن سمع الناس خبر مـوت الشـيخ حتـى تفرغـوا



لتشييعه، فغلقت أسواق دمشق، وعطلت مصالحها في ذلك الوقت. وخرج العامة والخاصة، والأمراء والعلماء والأجناد والرجال والنساء والصبيان.

وقد أكب الناس على جنازته، حتى خشي على النعش أن يحطم قبل وصوله إلى القبر، لولا أن أحدق بها الأمراء والأجناد.

ولم ير لجنازة ما رئي لجنازة ابن تيمية، من الوقار والهيبة والعظمة، والثناء على صاحبها، بما كان عليه من العلم والعمل والعبادة والزهادة والشجاعة ونصر دين ا تعالى.

ولما دفن – عليه رحمة ا تعالى – صار الناس يتناوبون قبره، للصلاة عليه، من القرى والأطراف والأماكن والبلاد، مشاة وركبانا. كذلك صلى الناس عليه في جوامعهم، بمصر والشام والعراق، وختمت له الختمات الكثيرة في الأيام والليالي، في مواضع عديدة.

وهكذا قد آثر المخلصون، أن يحتفوا بالشيخ في مماته مثلما احتفوا به في حياته. وقد أحسوا إذ فقدوه، أنهم فقدوا رجلا مخلصا عابدا زاهدا مثمرا لألوان عديدة من الخير.

"من الله عليهم، بما وفقه له، من إيضاح أصول الـدين، وتبيين الحق المحض، والاعتقاد العدل، وإفراده عن غيـره من البدع والضلالات، بأمور لم يسبق إلى مثلها، وإظهارهـا على لسانه، بما أورده من ذلك، مـن مؤلفاتـه ومصـنفاته وقواعده المطابقة للحق وتقريراته، وما أبرزه مـن الحجـج والبراهين الظاهرة، الموافقة للمعقول والمنقول، مما لم يتمكن أحد من المتكلمين والمناظرين من الإتيان بمثله، وما أظهـره وأورده من كثرة الدلائل العقلية بعد النقلية، حتى قطـع بـه جميع المبتـدعين، وكشـف بـه عـوار حجـج الشـاكين المشككين"[50].

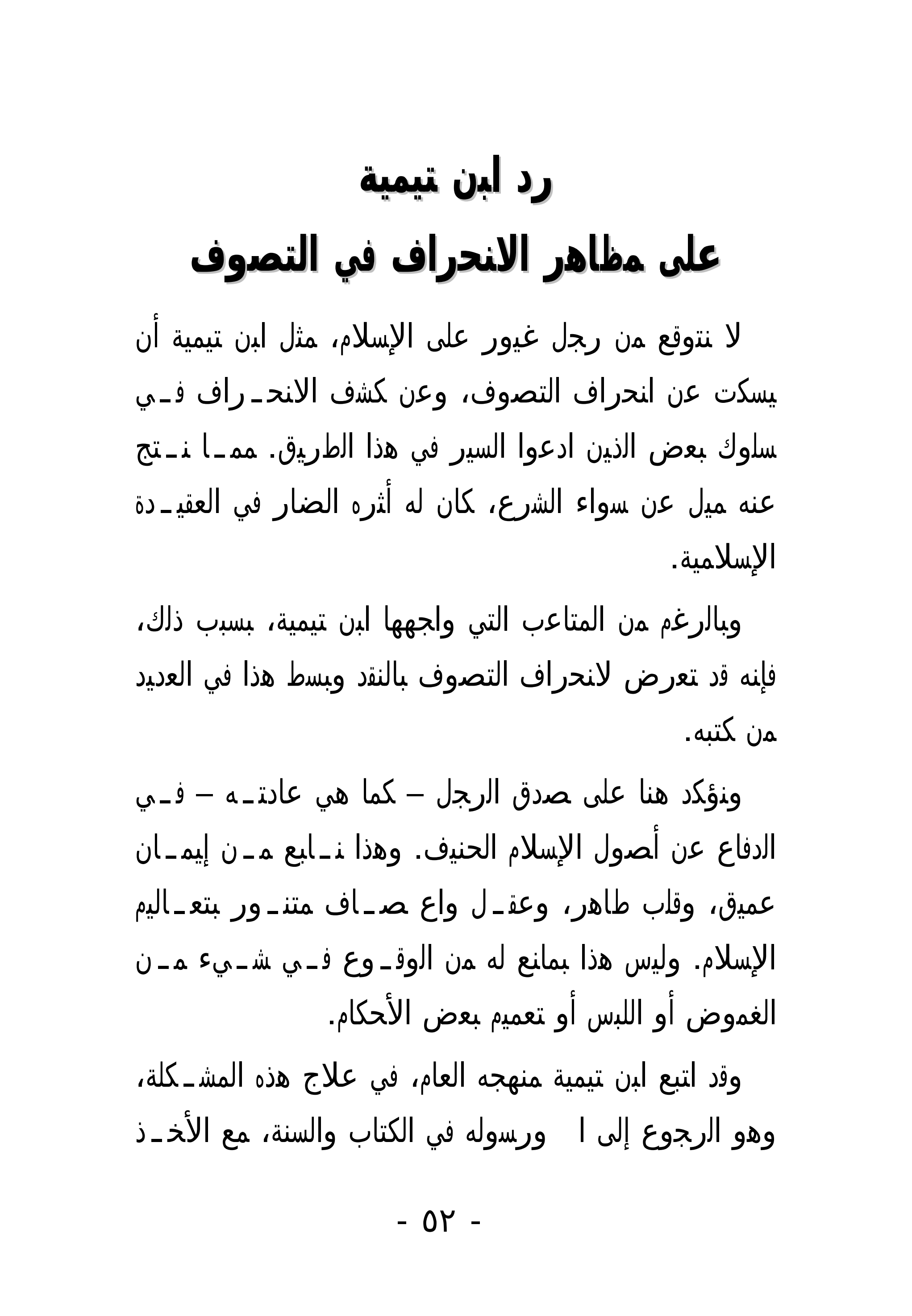
وهكذا يقيض الله تعالى، للعبد الصـالح المخلـص، مـن يذكره بالخير بعد وفاته، ومن ينشر سيرته الطيبة، دون دافع، سوى المحبة والميل إلى الحق.

---

[50] البزار: الأعلام العلية ٧٦ .

القسم الثاني

رأي ابن تيمية في التصوف



رد ابن تيمية
على مظاهر الانحراف في التصوف

لا نتوقع من رجل غيور على الإسلام، مثل ابن تيمية أن يسكت عن انحراف التصوف، وعن كشف الانحـراف فـي سلوك بعض الذين ادعوا السير في هذا الطريق. ممـا نـتج عنه ميل عن سواء الشرع، كان له أثره الضار في العقيـدة الإسلامية.

وبالرغم من المتاعب التي واجهها ابن تيمية، بسبب ذلك، فإنه قد تعرض لانحراف التصوف بالنقد وبسط هذا في العديد من كتبه.

ونؤكد هنا على صدق الرجل – كما هي عادتـه – فـي الدفاع عن أصول الإسلام الحنيف. وهذا نـابع مـن إيمـان عميق، وقلب طاهر، وعقـل واع صـاف متنـور بتعـاليم الإسلام. وليس هذا بمانع له من الوقـوع فـي شـيء مـن الغموض أو اللبس أو تعميم بعض الأحكام.

وقد اتبع ابن تيمية منهجه العام، في علاج هذه المشـكلة، وهو الرجوع إلى ا ورسوله في الكتاب والسنة، مع الأخـذ

بما يقبله العقل السليم كذلك.

ويرى ابن تيمية، أن السلف الصالح، كانوا يسمون أهـل الدين والعلم "القراء" وأن هذا يندرج تحته العلماء والنساك.

ثم حدث من بعد اسم "الصوفية"، وهو نسبة إلـى لبـاس الصوف على الأصح.

وقد حاول ابن تيمية، أن ينفي عن التصوف الحق كل أمر شكلي، ومن هانا رفض دعوى من يرى أن الصوفي نسـبة إلى الصفة، أو الصفاء، أو الصف الأول، إلى آخر ما قيـل في ذلك.

كذلك ينفي ما ذكر من إلباس الفتوة، السراويل أو غيرهـا حيث يقول:

"هذا باطل، لا أصل له. ولم يفعل هذا رسول ا صـلى ا عليه وسلم، ولا أحد من أصحابه، لا علي بن أبي طالب، ولا غيره، ولا من التابعين لهم بإحسان [٥١]".

هذا وإن الزهد المشروع، يتلخص في ترك ما لا ينفع في

---

[51] ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٤٨ – ١٤٩ – لجنة التراث العربي بمصر .

الدار الآخرة. وكل ما يعين العبد على طاعة مولاه سـبحانه، لا يجب تركه وإلا لم يكن زهدا.

ومن هنا يرفض ابن تيمية، أن يدخل الباحث في جـدل، حول مسمى الفقير والصوفي، لأنهما يندرجان تحت مسـمى الصديق أو الولي.

كذلك يرفض بحث الأفضلية بين الفقير والصـوفي، لأن الحكم بالأفضلية لا يناط بالتسمية لأنها أمر شكلي وإنما القول الفصل هنا قوله تعالى:﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى**﴾ إلى قوله سبحانه" إن أكرمكم عند ا أتقاكم". ويقول ابن تيمية معلقا على الآية الكريمة:

"فمن كان من هذه الأصناف أتقى ، فهو أكرم عند ا ، وإذا استويا في التقوى استويا في الدرجة "[٥٢].

وإن أساس الزهد الحق، مرتبط بمدى نجاح المـرء فـي التقرب إلى ا بأن يعبد ا وحده، لا شريك له وألا يجعلـوا

---

[52] ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٤٨ ط ١٣٩٧هـ .

مع ا إلها آخر "٥٣".

وقد جاءت الشريعة في العبادة باسم ا ، وفي السـؤال أو الدعاء، باسم الرب، ومن هنا وجب على المصلي والذاكر أن يقول: ا اكبر، وعلى الداعي ربه أن يقول:﴿ **ربنَـا ظَلَمنَـا أَنفُسنَا** ﴾ إلى غير ذلك.

والإيمان با وحده لا ينجي المؤمن، بل لا بـد مـن أن يضيف إليه الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر. كذلك لا بد أن يؤمن بأن محمدا رسول ا وخـاتم النبيـين ومرسل لجميع الثقلين. وعليه فلا إيمان لمن أخل بأي أمـر من هذه الأمور، وبالأولى فإنه لا يكون وليا.

"إن الايمان من الأحكام المتلقاة عن ا ورسوله، لـيس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم.. كـان بعـض السلف ينكر أشياء، حتى يثبت عنده أن النبي صلى ا عليه وسلم قالها... وقد عفا ا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان٥٤".

ويجب الإيمان كذلك، بأن الخالق سبحانه وتعـالى، بـائن

[53] مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٥٥

[54] المصدر السابق ١: ٥٣

عن مخلوقاته، إذ ليس في مخلوقاته أي شيء من ذاتـه، ولا في ذاته أي شيء من مخلوقاته.

إن للرب منزلة الربوبية، وللعبد منزلة العبودية، قال ا تعالى:

﴿إن كُل من ِفي السماواتِ والأرض ِإلا آِتي الرحمن عبدا. لقَد َأحصاهم وعدهم عدا* وكُلهم آِتيهِ يوم الْقِيامةِ فَردا﴾. مريم ٩٣ – ٩٥.

ويقول ابن تيمية في هذا المعني:

"أجمع سلف الأمة وأئمتها، على أن الرب تعالى، بـائن من مخلوقاته، يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه بـه رسول ا صلى ا عليه وسلم، مـن غيـر تحريـف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يوصف بصفات الكمال، دون صفات النقص، ويعلم أنه ليس كمثله شيء، ولا كقوله، في شيء من صفات الكمال [55]".

ثم يستشهد بقوله تعالى:

﴿قُلْ هو ا ُ َأحد. ا ُ الصمد. لم يلِد ولم يولَد. ولم يكُن له كُفُوا َأحد﴾.

---

[55] الفرقان ١١٠

إن ا سبحانه وتعالى، إذا أراد شيئًا، أن يقول له:﴿ **كُـن فَيكُون** ﴾ ومن هنا لا يخرج بر ولا فاجر عـن تكـوين ا سبحانه ومشيئته وقدرته. لكنهما يفترقان بعـد فـي كلماتـه الدينية وهي كتبه المنزلة، وما فيها من الأمر والنهـي، فـلا يطيعها إلا الأبرار.

"وأولياء ا المتقون، هم المطيعـون لكلماتـه الدينيـة، وجعله الديني، وإذنه الديني، وإرادته الدينية [56]".

وإذا كان الإيمان مناط الولاية، فإن درجة الولاية أيضـا تتوقف على درجة الإيمان. قال تعالى:

﴿ **وإِذَا ما أُنزِلَتْ سورةٌ فَمِنْهم من يقُولُ أَيكُم زادتْه هـذِهِ إِيمانًا فَأَما الَّذِين آمنُوا فَزادتْهم إِيمانًا وهم يستَبشِرون. وأَما الَّذِين فِي قُلُوبِهِم مرض فَزادتْهم رِجسا إِلَى رِجسِهِم ومـاتُوا وهم كَافِرون**﴾. التوبة ١٢٤- ١٢٥

فأولياء الرحمن هم المتقون المخلصون: ﴿ **أَلا إِن أَولِيـاء ا لا خَوفٌ علَيهِم ولا هم يحزنُون.الـذِين آمنُـوا وكَـانُوا يتقُون**﴾. يونس ٦٢ – ٦٣

---

[56] المصدر السابق ١٣٥

وأيضا فإن من أصح الأحاديث القدسية، التي تروى في الأولياء ما رواه البخاري، وهو: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب"[57].

ومن علامات التقوى، ما ورد في تفسير قوله تعالى﴿ **يا مريم اقْنُتِي لِربكِ** ﴾" فقد ورد أنها كانت تقوم حتى تتورم قدماها، ومن أنها ركدت في محرابها قائمة وراكعة وساجدة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها"[58].

ومثله ما ورد عن التستري، حين سئل: أيسجد القلب؟ قال: نعم، سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا"[59]. وهكذا يورد ابن

---

[57] ورد بلفظ: "من أهان لي وليا فقد بارزته بالمحاربة" ص ١٧١ ، "من آذى لي وليا فقد استحل محاربتي" ص ١٦٦ من/ عبد الرءوف الحدادي: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ط ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ صبيح بمصر .

[58] ابن تيمية: جامع الرسائل ١: ٨ تحقيق د . محمد رشاد سالم ط١ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م مطبعة المدني – القاهرة .

[59] المصدر السابق ١: ٤٥ . وقد عقد التستري حديثا خاصا بالقلب ومدى دلالته على صلة العبد بربه – انظر تراث التستري الصوفي ٢: ٢٦٤ دراسة وتحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ١٩٧٦ مكتبة الشباب بالقاهرة .

تيمية أقوال بعض الزهاد مطريا لها ولهم، دون اعتراض.

وهذه الأمثلة، هي التي تبرز الفرق بين الحق والباطـل، في ميدان الزهد، والولاية الحق، القـائمين علـى الإيمـان والتقوى.

ومن الباطل الصراح، ما ذهب إليه متصـوفة الجهميـة، الذين تئول حقيقة أمرهم إلى عبادة كل شيء، ومن أعجـب الأمور، أنهم يعلقون ذلك بالقلب أيضا:

"متصوفة الجهمية يعبدون كل شيء، وذلك لأن العبـادة تتضمن القصد والطلب والإرادة والمحبة، وهـذا لا يتعلـق بمعدوم. فإن القلب يتطلب موجودا، فإذا لم يطلب مـا فـوق العالم طلب ما هو فيه "[60].

وكل هذا، ليس إلا تحايلا من هؤلاء لإثبات باطلهم فيمـا ذهبوا إليه من القول بوحدة الوجود تلك الفكرة الباطلة التـي تسوي بين الخالق والمخلوق.

ومن أخطاء الاتحادية، في هذا المقام، ما ذهبوا إليه فـي حديث الولي، من أن تقرب العبد بالنوافل، يوجب أن يكـون

---

[60] مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٧٠

عين الحق عين أعضائه، وإن تقرب العبد بالفرائض، يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله، ومن أجل هذا، حكـم ابـن تيمية بفساد هذا الرأي، بـل وذهـب إلـى القـول بتكفيـر أصحابه[61].

إن الإنسان العاقل الخبير، هو الذي يمكنه التمييـز بـين حقائق الإيمان، وبين أحوال الشيطان [62] . فإذا تمكن من هذا التفريق، اهتدى قلبه بنور الله عز وجل:

﴿ **يا أَيها الذِين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا بِرسـولِهِ يـؤْتِكُم كِفْلَين مِن رحمتِهِ ويجعل لكُم نُورا تَمشُون بِهِ ويغْفِـر لكُـم والله غَفُور رحِيم**﴾ الحديد ٢٨.

ولا يستبعد الشيخ ابن تيمية، أن يكـون فـي المتصـوفة والمتفقهة وغيرهم، من هو صديق، ومن هو زنديق.

وهو أيضا لا ينكر مظاهر التصوف، عند بعض شـيوخ

---

61 المصدر السابق ٤: ٦٢ .

62 مصداق هذا قول التستري: "لو كانت الدنيا كلها جهلاء ، كان قوت المؤمن منها حلالا" . راجع التستري: المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال ص ٨٦ تحقيق / د . محمد كمال جعفر ط ١ ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م دار الإنسان بالقاهرة .

الصوفية، مثل الجنيد، والتستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي طالب المكي، وابن عطـاء، والسـلمي، نظـرا لعـدم تعارضها مع الشرع بأي حال.

والسبب في تمجيد الشيخ لهؤلاء الصوفية، أنهم لم يقولـوا بوحدة الوجود: "بل هم أبعد الطوائف عن مذهب الجهمية في سلب الصفات، فكيف يكونون في مذهب الدهرية، المنكـرين لانفطار السماوات والأرض وانشقاقهما[63]".

إن الباطل ليس له مظهر واحد، لكنه مظاهر متعددة. ومن العجيب أن كل لون من الباطل، لم يعدم أنصارا من البشـر، يعتنقونه ويدافعون عنه.

وقد وصف ا سبحانه أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم في عمى وصمم وأنهم محرومون من الفقه والعقل، وأنهم دائما في تفرق:﴿**إِنكُم لَفِي قَولٍ مخْتَلِفٍ * يؤْفَك عنْه من أُفِك**﴾. الذاريات ٨- ٩.

ومن هنا يرى ابن تيمية، استحالة تصوير المذهب الباطل، تصويرا حقيقيا، فيقول:

---

63 ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية ١: ٢٣٨

"اعلم أن المذهب إذا كان باطلا في نفسه، لم يمكن الناقد له، أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا، فـإن هـذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل فإذا بين، فبيانـه يظهـر فساده، حتى يقال: كيف اشتبه هذا على أحد، ويتعجـب مـن اعتقادهم إياه، ولا ينبغي للإنسان أن يعجب[٦٤]".

ولم يكن هذا بمانع لابن تيمية، من بيان فسـاد المـذاهب الباطلة، ومنها مذهب وحدة الوجود الصوفي. وهو لم يكتـف ببيان فساد ما ذهبوا إليه، بل إنه انتقدهم، وسفه آراءهم.

وكان هذا من أسباب إثارة السخط عليه، إذ عقد له مجلس محاكمة في شهر شوال عام ٧٠٧هـ، لكلامه في المتصوفة الاتحادية، وأمر بترحيله إلى الشام على البريد، ثـم رد مـن مرحلة، وسجن بحبس القضاة سنة ونصفا، ثم أخـرج إلـى الإسكندرية، وحبس في أحد الأبراج ثمانية أشـهر، إلـى أن أطلقه السلطان الناصر.

وقد حمل راية هذا الإصلاح من بعده، تلميذه ابـن قـيم الجوزية، فقد واصل النضال ضد أصحاب وحـدة الوجـود،

---

[64] مجموعة الرسائل والمسائل ٤: ٧

وهو يبدي رأيه فيهم فيقول:

"جاءت طائفة الاتحادية، فطموا الوادي علـى القـرى، وجمعوا الكل في ذات واحدة [٦٥]".

ولقد أبرز ابن تيمية كثيرا مـن عيـوب التفكيـر لـدى الصوفية الاتحادية أو الحلولية إذ أنهم يرون أن وجود الخالق تعالى، هو عين وجود المخلوق، أو أنه سـار فـي جميـع المخلوقات.

وقد جهر بعضهم بهذا المعنى، إذ قال: "ليس إلا ا ، وا فقط [٦٦]".

ولا يعني هذا إلا القول بوحدة الوجود. ومن هنـا كـان تصور مذهب هؤلاء كافيا في إظهار فساده، دون الحاجة إلى دليل خارجي. وقد انحصر كلامهم الذي يقولونه، في حـديث مفترى، أو شعر ملؤه الكذب والافتعال.

---

[65] ابن القيم: الروح ص ٤٤٦ ط٤/ ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م حيدر أباد الدكن – الهند .

[66] ابن تيمية: الرد على المنطقيين ٣٦ . ط ١٣٩٣ هـ ١٩٧٦م لاخور باكستان .

ولا ينحصر خطر هؤلاء القوم في ضـلالهم هـم، بـل يتعداهم الضلال إلى كل من تابعهم. فقد وجد من أتبـاعهم، من يهمل تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد. ومـن هـو منحل عن الأمر الشرعي بعضه أو كله.

وهم يحتجون بأدلة واهية ما أنزل ا بها من سلطان، إذ يرى بعضهم أن امتثال الأمر والنهي، إنما هـو مقـام مـن مقامات التلبس، كما يرى بعضهم الآخر، أن امتثـال الأمـر والنهي، من شأن العوام[٦٧].

هذا وإن من يقبل آراء هؤلاء الاتحاديين فهو إما جاهـل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد العلو والفساد، أو أنه شـخص جاهل ظالم.

ذلك أن القول بالحلول المطلق هكذا، إنمـا هـو بدعـة، انحدرت عن قدماء الجهمية، وقد حكم أهل السنة بكفرهم من أجل ذلك. وكان باطل هؤلاء الحلوليين، سببا في فتح أبـواب الاشتباه والحيرة.

---

[67] ابن تيمية: الحسنة والسيئة ١١١ . تحقيق / د . محمد جميل غازي ١٩٧٢ مطبعة المدني بمصر .

"وكثير من أهل السلوك، الذين لا يعتقدون هذا المذهب، يسمعون شعر ابن الفارض وغيره، فلا يعرفون أن مقصوده هذا المذهب [68]".

وهل هناك أسوأ، من أن يؤدي المـذهب، إلـى تقـاعس المؤمن عن الجهاد في سبيل ا تعالى. فقد كان أحد شـيوخ الحلولية، إذا أُمر بقتال العدو، يقول "أقاتل ا ؟!. ما أقدر أن أقاتل ا [69]". وكل هذا ناتج عن اعتقادهم في أن الخالق هـو المخلوق.

وإن سوء الاعتقاد والظن، هو الذي حدا بهـؤلاء، إلـى ادعاء التسوية بين الخالق والمخلوق:

"وأصل ضلال هؤلاء، أنهم لم يعرفوا مباينة ا سبحانه للمخلوقات وعلوه عليها، وعلموا أنـه موجـود، فظنـوا أن وجوده لا يخرج عن وجودهـا، بمنزلـة مـن رأى شـعاع الشمس، فظن أنه الشمس نفسها[70]".

---

[68] مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٦٩ .

[69] المصدر السابق ١: ٩٧

[70] المصدر السابق ١: ٦٩

ولو أن الاتحادية عقلوا قليلا، فنظروا إلى ما في الكائنات من تفرق وكثرة ظاهرة، ما وحدوا بينها وبين الخالق الواحد.

وكان من نتيجة إصرار هؤلاء على الاتحاد، جرأة بعضهم على القول بأنه يعلم ما يعلمه ا ، ويقدر على ما يقدر عليـه ا : ﴿ **كَبرتْ كَلِمةً تَخْرج مِن أَفْواهِهم إِن يقُولُون إِلا كَذِبا** ﴾.

بل زاد هؤلاء الطين بلة، فادعوا أن ما سبق كان للنبـي، ثم انتقل إلى الحسن بن علي، حتـى وصـل إلـى الحسـن الشاذلي، ووصل بعضهم إلى درجة البهتان والكذب الصراح، إذ يرى أن محمدا هو ا - [٧١]. تعالى ا عن قولهم علـوا كبيرا.

وقد بلغ ببعض الشاذلية، الانحراف في الدعاء، إلى درجة غير مقبولة لما فيه من تعطيل الأمر والنهي. فقد يدعو مثلا، أن يعطيه ا ، إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه، فهـو يجعل المسلمين كالمجرمين.

ومما يجب التنبه له هنا، أن الشيخ أبا الحسـن الشـاذلي نفسه، كان معتدلا، وكان ينصح جميع أصحابه بلزوم مـنهج

---

[71] ابن تيمية: الحسنة والسيئة ١١٧

الاعتدال في التعبير عن حقائق التوحيد[٧٢].

إن وجود الخالق سبحانه، ليس كوجود مخلوقاتـه. ومـن يقول بذلك يئول أمره إلى جحد وجود الخالق، فيكون قد أنكر أصل الإيمان.

وقد ذهب ابن سينا وأتباعه، إلى القول بأن البارئ تعالى، هو الوجود المطلق، بشرط الإطلاق، ويرى ابن تيمية أن هذا من أشد الأقوال فسادا، فإن المطلق بشرط الإطلاق، لا يكون إلا في الأذهان ومن المستحيل أن يكون في الأعيان[٧٣].

وحقيقة فإن دور ابن سينا الفكري وجهوده العلميـة، لا يمكن محقهما والتقليل من شأنهما. لكن المذهب الروحي عنده قد خفت ضوؤه، بسبب أنه جعل النفس جوهرا متميزا عـن الجسم تماما، مما أدى إلى ثنائية عز التوفيق بينها. ومن هنا عدل أنصار المذهب الروحي اليوم عن فكـرة الجوهريـة، واعتبروا النفس مجرد قوة أو نشاط. وكان هـذا بمثابـة رد

---

[72] د . أبو الوفا التفتازاني: ابن عطاء ا السكندري وتصوفه ٣٢١: ٣٢٢ ط٢ ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م مكتبة الأنجلو المصرية .

[73] مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٦٧ – ٦٨ .

فعل لمثل رأي ابن سينا[٧٤].

وحيث كان ا تعالى هو الحق، فإنه من غير المتصـور أن ذات الحق خلق بوجه مـا مـن الوجـوه، كمـا أن ذات المخلوق لا يمكن أن تكون ذات الخالق. ومن هنا فقد بطـل قول أهل وحدة الوجود الذي قالوا فيه: "إن ا لطف ذاتـه، فسماها حقا، وكثفها فسماها خلقا [٧٥]".

إن بطلان رأي أهل الوحدة، يبرز من تلقاء ذاته. وقد يلهم المؤمن الصادق الرد عليهم مباشرة. فقد قـال أحـد شـيوخ الصوفية هؤلاء: من قال إن في الكون سوى ا ، فقد كـذب. فقال له آخر: فمن الذي يكذب؟ فأفحمه.

ومن عجائب الأمور، أن يذهب أهل وحدة الوجود، إلـى القول بالحلول المطلق، ثم إنهم يخطئون فريقين آخرين هما: النصارى والمشركون. فالنصارى انحصر خطؤهم في القول بالحلول الخاص، والمشركون قد اقتصروا على عبادة بعض

---

[74] د . إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ١: ١٩٣ ط ٢ ١٩٦٨ دار المعارف بمصر .

[75] المصدر السابق: ١: ٧٦

المظاهر دون بعض، وكان الواجب – في رأي أهل الاتحـاد – أن يعبدوا الأشياء مطلقا.

وبالإضافة إلى ما سبق من تخبط أهـل الاتحـاد، فـإن الواحد منهم يقع في التناقض، دون أن يخزى من ذلك. فهـو عند نظره وبحثه يميل إلى النفي وعند عبادته وتصوفه يقول بالحلول. وهو يبرر هذا بأن بعض الأمور تـدرك بـالنظر، وبعضها الآخر يدرك بالذوق، وقد جهل وجوب تطابق النظر والذوق. [٧٦].

وقد أثبت أحد الباحثين الإسبان، أن التصوف النصراني، قد تأثر بآراء العرب في ذلك فيقول: "من الواضح الجلي، أن العرب قد أثروا بصورة حاسمة في التصوف النصراني[٧٧]".

لقد حاول ابن تيمية، أن يرد مـذهب ابـن عربـي، دون مواربة. وهو يرى أن تحقيقات ابـن عربـي وإلهاماتـه، لا تطابق تعاليم الأديان، وهي أيضا تخالف أصول التوحيد الذي

---

[76] المصدر السابق ١: ٧٠ - ٧١

[77] سلفادور غومث نوغالس: الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب ٦٣ .

جاء به المرسلون.

وكانت معارضة الشيخ لابن عربي، سببا من أسباب إثارة القلاقل عليه. فقد كان وراء ابن عربي عصبة غالـت فـي الاعتقاد بمذهبه في وحدة الوجود، واعتبروا أية مخالفة لهـذا المذهب جرما[٧٨].

ونحن هنا لا نورد إلا رأي ابن تيمية في تصـوف ابـن عربي، مع تحفظنا الشديد، نظرا لأن مؤلفات ابن عربي لـم تنشر كاملة حتى اليوم.

وقد أراد ابن عربي، أن يؤكد فكرة وحدة الوجود، حيـث عد وجود المخلوق هو وجود الخالق. ورتـب علـى هـذا، وجوب أن يكون كل موجود عابدا لنفسـه، شـاكرا لنفسـه، حامدا لنفسه.

ويلتقي فكر ابن عربي، مع فكر غالية الجهميـة الاتحاديـة، حيث يرى أن كل كلام في هذا الكون،إنما هو كلام ا تعالى [٧٩].

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

---

78 الندوي: حياة شيخ الإسلام ١٤٦

79 ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ٦٣ .

ويرد ابن تيمية عليه بقوله: "كل ما بالخالق من نعمة فمن ا وحده [٨٠]". كما يسفه رأي ابن عربي، لأنه يجعل الوجـود غير الثبوت. ذلك أن وجود الحـق قاصـر علـى ثبـوت الممكنات، فيقع الاتحاد بين الوجود والثبوت.

ومما يترتب على رأي ابن عربي، أنه يئول إلى التعطيل المحض، وأنه ليس للعالم رب مباين له، لأن الخالق في رأيه عين المخلوق. كما يترتب على رأيه أيضا القـول بـأن ا تعالى، لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه يـرى فيهمـا كذلك، بحجة:

"أن الوجود المطلق الساري في الكائنـات لا يـرى، وهـو وجود الحق عندهم [٨١]".

وهذا تناقض محض. ومعلوم أن هـؤلاء الاتحاديـة، لا يهمهم التناقض في شيء.

ولم يكتف ابن عربي بذلك بل إنه ذهب إلـى أن الـولي يعطَى قول "كن". وهذا يشبه ادعاء البعض الآخر من هؤلاء،

---

80 جامع الرسائل ١: ١٠٧

81 مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٠٠

إذ يرون أنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن، مثلما لا يمتنـع على الله تعالى فعل محال. وزاد ابن عربي على ذلك ما يعلم منه أن الولي مثل الله تعالى، إن لم يكن هـو الله فقـال: "إن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات"[82].

ويؤكد ابن تيمية ضلال هذا الرأي، ومـا يشـبهه، دون ريب، لأن الذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات، هو الله تعالى وحده.

وقد أدرك بعض المستشرقين أن الصوفية يدعون الاتحاد بالله تعالى وأنهم يرون النبي هو "الإنسان الكامل" الذي تجلت فيه جميع الصفات الإلهية"[83].

ولهذا وقعت منازعة بين ابن عربي وبين السهروردي في هذه المسألة التالية: هل حين يتجلي لهم يخاطبهم؟ وقد أثبـت السهروردي ذلك، وأنكر عليه ابن عربي قائلا:

---

[82] الحسنة والسيئة ١١٧

[83] نيكولسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٦١ ترجمة د . أبو العلا عفيفي . لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

"مسكين هذا السهروردي، نحن نقول له عن تجلي الذات، وهو يقول عن تجلي الصفات [٨٤]".

إن ابن عربي في الحقيقة، ينكر محبة ا تعالى، لقولـه: "ما التذ عارف قط بالمشاهدة، لأنها على أصله مشاهدة وجود مطلق، ولا لذة فيها [٨٥]". فهو هنـا ينكـر اللـذة بالمشـاهدة والخطاب.

وبالرغم من هذا، فإننا نجد ابن تيميـة، يترفـق بـابن عربي، ذاهبا إلى أنه له جوانب خير تحسب له فيقول:

"مقالة ابن عربي، صاحب فصوص الحكـم، وهـي مـع كونها كفرا، فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرا، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيـره. بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع، الذي يتخيل فيه الحق تارة، والباطل أخرى. وا أعلـم بمـا

---

84 جامع الرسائل ١: ١١٣ .

85 المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة.

مات عليه "[٨٦].

ولم يكن ابن تيمية، مجاوزا لحده، حين انتقد ابن عربـي في القول بوحدة الوجود. فقد شهد بعض باحثي الغـرب، أن وحدة الوجود عند سبينوزا الفيلسـوف اليهـودي (١٦٣٢-١٦٧٧ م) تشبه تماما وحدة الوجود التي قال بها ابن عربي، من حيث التوحيد بين ا تعالى وبين الألم، واعتبارهما شيئًا واحدا [٨٧].

ومن المعروف أن سبينوزا، صاحب فلسفة خاصة، لهـا جوانب إفراط من أهمها اعتقاده بأن سعادة الإنسان تأتي من اعتقاده بأنه جزء من النظام الجبري، الذي هو ا أو الكون [٨٨].

وحين أراد الغزالي تطبيق ذلك لم يستطع. ولذا قال لـه أحد العارفين: يا بني أنت أخلصت للحكمة، لم يكن ا هـو مرادك.

---

[86] مجموعة الرسائل ٤: ٦.

[87] Nicholson: Legacy of Islam . London ، 19 ، 19 p 226

[88] الموسوعة الفلسفية المختصرة: "سبينوزا" .

ويقول ابن تيمية: "والإخـلاص أن يكـون ا هـو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبـه على لسانه [٨٩]".

وكذلك كان الفخر الرومي، من أنصار وحـدة الوجـود الصوفية. ولذا حمل عليه ابن تيمية. ويتلخص منهج الفخـر في جعل المظاهر في الأعيان. كما أنه يجعـل الحـق فـي الكائنات، بمنزلة الكلي في جزئياته [٩٠].

ويدعي الفخر أن الوجود ليس زائدا على الماهيـة، وأن ا هو الوجود المطلق، الذي لا يتعين ولا يتميز، وأنـه إذا تعين وتميز، فهو الحق، سواء تعين في مرتبـة الإلهيـة أم غيرها. ويصور ابن تيمية حكمه على هذا الرأي بقوله:

"وهذا القول، قد صرح فيه بالكفر أكثر من الأول، وهـو حقيقة مذهب فرعون والقرامطة [٩١]".

---

[89] ابن الجوزي: الموضوعات ٣: ١٤٥ تحقيق / عبد الرحمن محمد عثمان ط ١ ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م المكتبة السلفية بالمدينة المنورة/ وقال: " هذا حديث لا يصح عن النبي صلي ا عليه وسلم" .

[90] مجموعة الرسائل ٤: ٢٢

[91] المصدر السابق ٤: ١٨

ومن العجيب أن يتشابه هذا الكلام، مع تخـبط نزعـات وحدة الوجود في أوربا في القرون الوسـطى. فقـد ذهـب بعضهم إلى أن ا تعالى هو شكل الأشكال، كما زاغ بعضهم أيضا فقال إن ا هو مادة جميع الأشياء [٩٢].

وقد انزلق ابن الفارض، إلى القول بوحدة الوجود، وذلـك في قصيدته التائية، ومنها قوله:

لها صلواتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

وقد كان ابن الفارض، يظن أنه هو ا ، لكنه تبين له فساد ظنه، بعد فوات الأوان، إذ أن الملائكة، قد حضرت لقـبض روحه[٩٣].

وإن موقف ابن تيمية هنا مخالف تماما، لموقف بعـض المستشرقين من أمثال "نيكولسون" الذي يرى أن تائيـة ابـن الفارض أثر فريد[٩٤].

---

92 سلفادور غومث نوغالس: الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب ص ٤٨ .

93 الفرقان ١٠٧ .

94 نيكولسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٢٠ .

وكان ابن سبعين، يقدم الولي على النبي، كما يرى أن النبوة لم تنقطع، وأن الكثرة وهم. وكذلك كان يقول في الذكر: "ليس إلا ا " بدل: "لا إله إلا ا ". ومن هنا أطلق عليه وعلى أصحابه "الليسيه" تحذيرا منهم. وقد أبدى ابن تيمية رأيه فيه على النحو التالي:

"هو من أكابر أهل الإلحاد، أهل الشرك والسحر والاتحاد، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم وأخبرهم بالفلسفة، وتصوف المتصوفة [95]".

أما السهروردي فقد كان أتبع للسنة والشرع، من ابن عربي، وكان نور المتابعة المحمدية على وجهه. لكن لم يخل الأمر من مآخذ أخذت عليه، ومنها:

ما تابع فيه بعض الفلاسفة، من القول بأن العالم لم يزل ولا يزال هكذا. بحجة أن هذه هي سنة الرب عز وجل، وهي لا تبديل لها. وهذا يعلم فساده من الدين بالضرورة، إذ ليس عنده دليل قاطع عليه.

ومما أخذ على السهروردي أيضا أنه: "كان ضعيف

---

95 مجموعة الرسائل ١: ٧٧ .

الإثبات للصفات والعلو، لما فيه من التجهم الأشعري. وكان يقول عن الرب: لا إشارة ولا تعيـين. وهـؤلاء مخانيـث الجهمية، وابن عربي من ذكورهم [96]".

ومن هؤلاء أيضا "التلمساني" حيث لا يفرق بين ماهيـة ووجود ولا بين مطلق ومعين. وهو يرى أن الكائنات أجزاء من المطلق، بمنزلة أمواج البحر في البحر.

ومن هنا يذهب ابن تيمية، إلى أن التلمساني، أخبث القوم وأعمقهم في الكفر، حيث إنه يرى أنه ما ثم غير ولا سوى، بوجه من الوجوه، وأن العبد إنمـا يشـهد السـوى مـا دام محجوبا، فإذا رفع الحجاب رأى أنه ما ثم غيـر يبـين لـه الأمر.

وقد ترتب على هذا أن التلمساني كـان يسـتحل جميـع المحرمات ويرى أن البنت والأم والأجنبية شيء واحـد، لا حرام فيها إلا للمحجوبين.

كذلك كان يصل به الضلال إلى درجة كبيرة، حيث يرى أن القرآن شرك كله، ليس فيه توحيد. وكان يقول: "القـرآن

---

96 جامع الرسائل ١: ١١٤

يوصل إلى الجنة وكلامنا يوصل إلى ا تعالى "[٩٧].

ولما قيل له: إن القرآن يخالف فصوص ابن عربي، قال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد من كلامنا.

ومن هنا فقد أطلق عليه ابن تيمية: "الفاجر التلمساني". ثم يحكم عليه حكما حاسما بقوله: "وهـذا مـع كفـره العظـيم متناقض ظاهرا، فإن الوجود إذا كان واحدا، فمن المحجوب؟ ومن الحاجب؟! [٩٨]".

وهنا يتشابه الموقف بين أمثال التلمساني، وبين الوجودية اليوم، التي ابتدعها "سارتر" حيث بنى هـذا المـذهب علـى اغتنام ملاذ الحياة دون إقامة أي وزن للقيم الخلقية.

وقد وقع أصحاب وحدة الوجود فـي خطـأ آخـر، هـو حصرهم الإيمان با ، في أن وجوده هو وجود العالم، وأنهم أعلم با من الرسول صلى ا عليه وسلم.

وقد ذهب الجنيد، إلى حصر التوحيـد فـي أنـه "إفـراد الحدوث عن القدم". أي أن تميز بين القديم والمحدث، وبـين

---

[97] مجموعة الرسائل ١: ١٧٧

[98] الفرقان ١٠٠ .

الخالق والمخلوق.

وقد وافقه ابن تيمية، على هذا الرأي. لكن تصدى ابن عربي، فأنكر على الجنيد قائلا: "هل يميز بين المحدث والقديم، إلا من يكون غيرهما [99]".

ويري ابن تيمية، أن منهج الجنيد، هو المنهج الصحيح في هذا المقام وقال:

"فمن سلك مسلك الجنيد، من أهل التصوف والمعرفة، كان قد اهتدى ونجا وسعد. ومن لم يسلك في القدر مسلكه، بل سوى بين الجميع، لزمه ألا يفرق بين الحسنات والسيئات وبين الأنبياء والفساق [100]".

إن القدر ليس حجة لأحد من المشركين والمذنبين، وإلا لم يستحق واحد منهم العقاب. وكل من يرى أن القدر حجة لأهل الذنوب، صار من المشركين الذين قال عنهم القرآن الكريم: **﴿سيقُولُ الذِين أَشْركُوا لَو شَاء ا ُ ما أَشْركْنَا﴾**. (الأنعام ١٤٨).

[99] الفرقان ٩٨ - ٩٩

[100] الحسنة والسيئة ١٩

فالقدر يجب الإيمان به، دون جواز الاحتجاج به أو اتخاذه ذريعة لمخالفة أوامر ا ونواهيه.

وعلى هذا الأساس، نجد ابن تيمية، ينتقد مسلك بعض المتصوفة الذين:

"يسلكون أنواعا من الحقائق التي يجدونها ويذوقونها، ويحتجون بالقدر، فيما خالفوا فيه الأمر، فيضاهون المشركين، الذين كانوا يبتدعون دينا لم يشرعه ا ، ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر ا [١٠١]".

ومما يؤخذ على الاتحادية أيضا، موقفهم من مسألة "فرعون"، حيث إنهم يعظمونه، ويدعون أنه مات مؤمنا، وأن تغريقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، محتجين بأنه ليس في القرآن ما يدل على كفره، بل فيه ما يدل على إيمانه، مثلما ورد في سورة يونس بالآية التسعين: ﴿**آمَنْتُ**﴾. لكن تمام القصة يوضح غير ذلك، وهو: ﴿**آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (يونس ٩١)

وقد زاد هؤلاء الطين بلة، حيث ذكروا أن فرعون هو

---

101 مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٧٤

الإله نفسه، وأنه لم يكذب حين قال: ﴿**أَنَا ربكُـم الأعلـى**﴾.
ومن هنا كانوا أضل من فرعون نفسه. وفي هذا يقول ابـن تيمية:

"كفر فرعون، وموته كافرا، وكونه من أهل النار، هـو مما علم بالاضطرار من دين المسلمين، بل ومن دين اليهود والنصارى [١٠٢]".

ومن المسلم به، أن عدم العلم بالحقيقة لا ينفي وجودها في نفسها. وكثيرا ما يكون العقل كالمطية، يوصل صاحبه إلـى أول الباب لا غير.

ولم يكن العقل يوما ما، أصلا لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطيا له كمالا، ولا صفة لم تكن له.

وإن تقديم العقلي مطلقا خطأ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقليا خطأ. كذلك فإن نصـوص الكتـاب والسـنة، لا يعارضها ما هو معقول. فإن حدثت المعارضة، كان الاشتباه في المعقول نفسه. وفي ذلك يقول ابن تيمية:

"إن النصوص الثابتة، عن الرسول صلى ا عليه وسلم،

---

102 جامع الرسائل (١: ٢٠٣)

لم يعارضها قط صريح معقول، فضلا عن أن يكون مقـدما عليها. وإنما الذي يعارضها شبه وخيالات، مبناها على معان متشابهة وألفاظ مجملة. فمتى وقع الاستفسار والبيان، ظهـر أن ما عارضها شبه سوفسطائية، لا براهين عقلية "[١٠٣].

وقد كان أصحاب الزهد الحق، يثبتون الأسباب، فقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما، إلى أن: "العقل غريزة". وهذا بعكس ما يراه نفاة الطبائع، كالأشعري، إذ أن العقل في رأيهم لا يخرج عن كونه مجرد العلم [١٠٤].

ولقد حاول أهل التحريف، أن يـدعوا أن الأنبيـاء لـم يقصدوا بما أتوا به من نصوص، إلا الحق وأن الحق لـيس إلا ما علمه المحرفون بعقولهم. وهم بعد هذا يجتهدون فـي تأويل هذه النصوص، بإخراج اللغة عن أصولها ومنهجهـا، وبالاستعانة بغرائب من المجاز والاستعارة.

وكان الصحابة والتابعون، رضوان ا عليهم، يفهمـون

---

[103] ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ١: ١٥٦ . تحقيق د . محمد رشاد سالم ط ١٩٧١ مركز تحقيق التراث بمصر .

[104] الرد على المنطقيين ٩٤ .

التأويل، بما يئول إليه الأمر، أو بما يفسر الكلام، ويوضـح معناه. أما التأويل بمعني صرف اللفظ عن الاحتمال الـراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل فهذا من اصطلاح المتـأخرين [١٠٥]

وهناك أهل التأويل المحض، وهـم الـذين يجتهـدون، فيصيبون أو يخطئون. فهؤلاء مغفور لهم خطـؤهم، بسـبب حسن قصدهم، وينطبق عليهم قوله صلى ا عليه وسلم: "إذا اجتهد الحاكم، فأصاب، فله أجران. وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر [١٠٦]".

وقد تأثر أهل وحدة الوجود، بالفلاسفة، ومن سلك سبيلهم من القرامطة والباطنية. حيث أجازوا أن يتدين الرجل بـدين المسلمين واليهود والنصارى، وغير هـذا ممـا هـو كفـر صراح.

ولا يستطيع هؤلاء الصوفية، أن يدعوا أن هذا ناتج عن

---

[105] درء تعارض العقل والنقل ١: ١٤ .

[106] ابن تيمية: رأي الحسين ١٧٧ – ١٧٨ ط ١٣٩٧ مطبعة المدني بمصر في الصحيحين: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران" .

الكشف أو الذوق، لأن هذا ليس إلا تخمينا بالعقل، وإطلاقا له دون حدود. يقول ابن تيمية:

"من لم يقر باطنا وظاهرا، بأن ا لا يقبل دينا سوى الإسلام، فليس بمسلم، ومن لم يقر بأن بعد مبعث محمد صلى ا عليه وسلم، ليس مسلما، إلا من آمن به، واتبعه باطنا وظاهرا، فليس بمسلم[١٠٧]".

ومن المذموم، أن يتكلم المسلم على الجوهر والعرض والجسم، مقحما معانيها في أصول الدين نفيا وإثباتا. وأن من واجب العالم المسلم، أن يعرف المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة، فإذا وافق هذا شيئًا مما قاله الفلاسفة والمتكلمون، كان أمرا عظيم المنفعة، وكان حكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق.

ولم يكن السلف الصالح، يذمون الكلام لمجرد اشتماله على الاصطلاحات المولدة، مثل "الجوهر والعرض"، بل لكون المعاني التي عبروا عنها بتلك الألفاظ فيها لون من الباطل، الذي يجب اجتنابه في الأدلة والأحكام. وفي ذلك

---

107 المصدر السابق ١٦٥ .

يقول الشيخ ابن تيمية:

"إنه لا يوجد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أحد من الأئمة المتبوعين: أنه علق بمسمى لفظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض، ونحو ذلك شيئًا من أصول الدين، لا الدلائل ولا المسائل. والمتكلمون بهذه العبارات، يختلف مرادهم بها، تارة لاختلاف الوضع، وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ[108]".

وقد بلغ من تأثر أصحاب وحدة الوجود، بالمنهج العقلي لدى المتكلمين وبعض الفلاسفة، أن قرروا أن الوجود الواجب والوجود الممكن، بمنزلة المادة والصورة – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

ولا بأس أن يمر الفلاسفة مع خواطرهم، ويخالفوا أساتذتهم. لكن يجب وقوفهم عند حد معين، إزاء قضايا الدين، ولا سيما فيما يتصل بالذات الإلهية. فلا مجال هناك لعقل أو نظر دون دليل شرعي.

---

[108] درء تعارض العقل والنقل ١: ٤٥.

وقد انحرف بعض المتصوفة عن الجادة، حين سايروا العقل أو الذوق دون دليل شرعي وظهر منهم من يدعي الاستغناء بالعمل الباطن عن الظاهر، ومن يدعي باطنا وظاهرا لكتاب ا . فهذا كله ليس إلا ضربا من الفلسفة المتزندقة، كما أنه ليس إلا نوعا من النفاق.

وكل هؤلاء الصوفية يبررون ما فعلوا، بأن الصحابة لو كانوا في زمانهم لفعلوا مثل فعلهم، لكن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد. وليس هذا إلا محض افتراء على الصحابة.

وكان بعض هؤلاء المتصوفة، يفخرون بأنهم أدخلوا التفلسف في التصوف. ومن هنا يقول التلمساني:

"كان شيخي القديم متروحنا متفلسفًا، والآخر فيلسوفًا متروحنا – يعني الصدر الرومي [109]".

"أما الفلاسفة، فلا يجمعهم جامع، بل هم أعظم اختلافا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى. والفلسفة التي ذهب إليها الفارابي وابن سينا، إنما هي فلسفة المشائين

---

[109] مجموعة الرسائل ١: ١٧٦

أتباع أرسطو، صاحب التعاليم وبينه وبين سلفه من النـزاع والاختلاف ما يطول وصفه، ثم بين أتباعه من الخلاف مـا يطول وصفه. وأما سائر طوائف الفلسفة، فلو حكي اختلافهم في علم الهيئة وحده، لكان أعظم من اختلاف كل طائفة مـن طوائف أهل القبلة. والهيئة علم رياضي حسابي، هـو مـن أصح علومهم. فكيف بالإلهيات [١١٠]".

ويعلم من هذا، أن ابن تيمية، يعارض التصوف الممزوج بالفلسفة، كما يعارض أصحاب وحدة الوجود، الذين يطوفون على أبواب المذاهب، ويفوزون بأخس المطالـب. وهـم لا يتحرجون من تحريف الأحاديث بل والاستشهاد بالأحاديـث الموضوعة مثل حديث: "أول ما خلق ا العقل".

وقد قرر ابن تيمية، أن ثبوت الشيء في العلم والتقـدير، ليس هو ثبوت عينه في الخارج، بل العالم قد يعلـم الشـيء فيتكلم به أو يكتبه، دون أن يكون لذاته في الخـارج وجـود بحال ما.

ويمكن أن يقال هذا بالنسبة لتقدير ا تعالى السابق لخلقه

---

110 درء تعارض العقل والنقل ١: ١٥٧ - ١٥٨

كما جاء في صحيح مسلم:

"إن ا كتب مقادير الخلائق، قبل أن يخلـق السـماوات والأرض، بخمسين ألف سنة". (مسلم: قدر ١٦).

لكن يرى أصحاب وحدة الوجود، أن المعدوم شيء ثابت في العدم. وقد نشأ عليهم الاشتباه، من حيث إنهم رأوا أن ا سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه: ﴿ **إِنما أَمره إِذَا أَراد شَيئًا أَن يقُولَ له كُن فَيكُون**﴾

وقد رأى هؤلاء، أن المعدوم الذي يخلقه ا تعالى متميز في علمه وإرادته وقدرته، فظنوا أن ذلك راجع إلى تميز ذات له ثابتة، والحق أنه متميز فقط في علم ا وكتابته.

على أن هذا الأمر ليس مستحيلا على الإنسان نفسه، فكل منا يعلم الموجود والمعدوم والممكن والمستحيل ويعلم ما كان كأخبار آدم، وما يكون كالقيامة والحساب.

وقد فرق ابن عربي بين الوجود والثبوت، كما زعـم أن الأعيان ثابتة في العدم، وأنها غنية عن ا تعالى في أنفسها، وأن وجود الحق هو وجودها. كذلك يدعي أن الخالق – عز عن قوله – مفتقر إلى الأعيان في ظهور وجودهـا، وهـي مفتقرة إليه في حصول وجودها الذي هو نفس وجوده.

وقد لاحظ ابن تيمية، أن قول ابن عربي هذا، مركب من قول من قال إن المعدوم شيء، ومن قول من يرى أن وجود المخلوق هو وجود الخالق، أي أنه قول مركب من الفلسفة والتصوف المغالي.

وحينما يقرر ابن عربي أصلا من أصول مذهبه. وهو أن المعدوم شيء ثابت في العدم يكون بذلك موافقا لمن قال هذا من المعتزلة والرافضة.

غير أن هؤلاء يختلفون عنه، إذ يعترفون بأن ا خلق وجود المعدوم ولا يقولون إن عين وجودها عين وجود الحق:

"أما صاحب النصوص وأتباعه، فيقولون: عين وجودها عين وجود الحق، فهي متميزة بذواتها الثابتة في العدم، متحدة بوجود الحق العالم بها. وعامة كلامه ينبني على هذا لمن تدبره وفهمه [١١١]".

وإذا كانت الأعيان ثابتة في العدم، كما يزعم ابن عربي دون دليل، فقد ترتب على ذلك ما صرح هو به، من أن ا

[111] مجموعة الرسائل ٤: ٦ .

تعالى لم يعط أحدا شيئًا وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه، وأنه مفتقر إليهم لظهور وجوده في أعيـانهم، وهـم أيضـا مفتقرون إليه، لكون أعيانهم ظهرت في وجوده. وبصـريح العبارة فإن ابن عربي يرى أن:

"الرب إن ظهر فهو العبد، والعبد إن بطن فهـو الـرب. ولهذا قال: لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك.. وقال: فلا تطمع أن ترقى في أعلى من هذه الدرج، فما ثم من شيء أصلا [١١٢]".

ويتضح من هذا، مدى خطورة مذهب ابن عربي في هذا الميدان، لمجافاته لكل الشرائع السماوية.

أما منهج ابن تيمية فهو منهج حق، لأنه مـنهج الكتـاب والسنة، الذي سار عليه السلف الصالح. والذي يتلخص فـي أن المعدوم ليس في نفسه شيئًا، وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد. قال تعالى:

وقد خلقتك من قبل ولم تلك شيئًا" فهنا قد أخبر ا تعالى أن زكريا عليه السلام، لم يكن شيئًا قبل خلقه.

ومما هو مقرر في الإسلام، أن ا تعالى، لا يسأل أحـدا

---

112 جامع الرسائل ١: ١٠٤ .

من عباده أن يقضي حوائج خلقه ومن هنا يتضح أنـه مـن الشعر المنكر قول بعضهم:

شفيعي إليك ا   لا رب غيره

وليس إلى رد الشفيع سبيل

ففي هذا خطا شنيع، وهو الاستشفاع با   تعالى. وقد حدث من بعض الاتحادية أنه قد استشفع با   إلى رسـوله، وكـلا النوعين من الاستشفاع منكر، لأنه سبحانه هو الذي يقصـد للحوائج، دون وسيلة ما من البشر.

وقد تأثر التصوف الاتحادي، بالفلسفة، وبمذهب الفـيض المنسوب إلى أفلوطين، كما يتضح من قول ابن تيمية، عـن أهل وحدة الوجود:

"يجعلون الشفاعة مبنية على ما يعتقدونه، من أن الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته، وليس عالما بالجزئيات، ولا يقـدر أن يغير العالم، بل العالم فاض عنه بغير مشيئة وقدرته وعلمـه".[١١٣]

---

[113] الرد على المنطقيين ١٠٣

وما فتئ الصوفية أهل وحدة الوجود، يعلنون أن الحب تعالى هو أسمى المقامات. لكن حب ا لديهم، لـيس معـه رجاء ولا خوف، ومن هنا فإنه يبعث الـنفس علـى اتبـاع هواها، ولا يخرج عن كونه حب المرء لنفسه، واتخاذ إلهـه هواه، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيتَ من اتخَذَ إِلهه هواه** ﴾ وفي ذلـك يقول ابن تيمية:

"وقول القائل: لقد حق لي عشق الوجود وأهله – يقتضي أن يعشق إبليس وفرعون وهامان وكل كافر، ويعشق الكلاب والخنازير.. مع أنه باطل شرعا وعقلا، فهو كاذب في ذلـك متناقض فيـه فإنـه لـو آذاه مـؤذ وآلمـه ألمـا شـديدا، ولا يغضب محرم شرعا [١١٤]".

ويتباهى أهل الاتحاد بمقام "الفناء" وهو فناء عن وجـود السوى، بمعنى جعل الوجود وجودا واحدا [١١٥].

وربما سموه مقام "الاصطلام" وهو أن يغيب بموجوده عن

---

[114] مجموعة الرسائل ١: ٧٧ .

[115] أورد القشيري للفناء تعريفا مقبولا وهو: "سقوط الأوصاف المذمومة" الرسالة القشيرية ص ٦١ مكتبة محمد صبيح بالقاهرة ١٩٦٦ م .

وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته. وهذا التصوف موجود لدى الحلاج.

وقد حكي أن رجلا كان يحب رجلا آخر، فألقى المحبوب نفسه في الماء، فألقى المحب نفسه خلفه، فقال أنا وقعت فلـم وقعت أنت؟ فقال: غبت بك عني، فظنت أنك أني.

وعلى كل حال، فقد غلط بعض الصوفية في هذا المقام، فهم:

"لا يفرقون بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكـروه. وهذا غلط عظيم غلطوا فيه، بشهود القدر، وأحكام الربوبيـة عن شهود الشرع والأمر والنهي وعبادة ا وحده وطاعـة رسوله. فمن طلب رفع آنيته بهذا الاعتبار، لم يكن محمـودا على هذا، ولكن قد يكون معذورا[١١٦]".

ولو أن أصحاب وحدة الوجود، اتبعوا الشـرع، لعلمـوا أن حقيقة "الفناء الشرعي" كانت حال النبيين وأتباعهم، وهي أن يفنى العبد بعبادة ا عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب مـا سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالتوكـل عليـه عـن

---

[116] مجموعة الرسائل ١: ٨٣

التوكل على ما سواه.

ومن هذا النوع: الفناء عن اتباع هواه بحيث لا يحـب إلا ا ولا يبغض إلا ا . ففي هذا تحقيق التوحيد والإيمـان [117]. إذ أن عمل العبد يكون تعالى واستعانته به، وقـال تعـالى: ﴿**فَاعبده وتَوكلْ عليهِ** ﴾.

هذا وقد صار من المعلوم لدى علماء النفس، أن الفناء تجربة دينية، وأنه أصفى حياة يمكن للإنسان أن يعيشها.

ولقد كان المشركون، يزعمون أنهم أهل ا ، لأنهم يقطنون مكة ولأنهم يجاورون البيت الحـرام، وكـان هـذا مبعثـا لاستكبارهم على غيرهم.

قال ا تعالى:

﴿ **وهم يصدون عن المسجِدِ الحرامِ وما كانُوا أَولياءه إِن أَولياؤُه إِلا المتقُون** ﴾ الأنفال ٣٤.

فليس المشركون أولياء ا تعالى، ولا أولياء بيته، وإنمـا أولياؤه هم المتقون الذين يؤمنون با تعالى ويخشونه حـق خشيته.

---

[117] المصدر السابق ١: ١٠٥.،

وقد انحرف بعض الصوفية، عن الجادة، حين تأولوا البيت الحرام حسب هواهم، مطبقين مذهبهم في وحدة الوجود على هذا البيت المقدس.

فقد حدث أن طلب أحدهم من والده، أن يسمح له بالحج. فأمره أن يطوف بنفس الأب، وقال: طف ببيت ما فارقه ا طرفة عين قط[118]. وهو يقصد بذلك الحلول التام المطلق، ومن هنا كان كافرا دون ريب، لأن الطواف بالبيت العتيق، من أمر ا تعالى ولذا حرم الطواف بالصالحين.

وحدث أحد الشيوخ من ذوي الخبرة والسلوك، أنه زار مكة مع أحد الصوفية، فقال له: هذا مهبط النور الأول. لو قال لك صاحب هذا البيت: أريد أن أجعلك إلها، ماذا كنت تقول له. فانخنس الشيخ، وقف شعر رأسه، من هول ما سمع من هذا الصوفي [119].

وينفي ابن تيمية، عن رابعة العدوية، تهمة ألصقها بها الخصوم، وهي أنها قالت عن البيت إنه الصنم المعبود في

---

118 الحسنة والسيئة ١١٧ .

119 الحسنة والسيئة ١١٧ .

الأرض[120]. فهذا كذب على رابعة، ولأنه يؤدي إلـى الكفـر المحض، ولم تكن رابعة من هذا النوع.

وقد ربط ابن تيمية بحق بين الولاية والشريعة، فلا ولاية دون تطبيق لتعاليم الشرع. وهو يقول في هذا المعنى:

"لفظ الشرع والشريعة، إذا أريد به الكتاب والسنة، لم يكن لأحد من أولياء ا ، ولا لغيرهم، أن يخرج عنه. ومن ظـن أن لأحد من أولياء ا طريقا إلى ا غير متابعة محمد صلى ا عليه وسلم، باطنا وظاهرا، فلم يتابعه باطنًا وظاهرا، فهو كافر [121]".

إن كل من يدعي محبة ا تعالى، يصبح مطالبا باتبـاع الرسول صلى ا عليه وسلم، وما أتى به من عند ا تعالى: ﴿إن **كُنْتُم تُحِبون ا فَـاتبِعونِي يحبِـبكُم ا ويغْفِـر لكُـم ذُنُوبكُم**﴾ آل عمران ٣١

ولقد بعث ا تعالى محمدا صلى ا عليه وسلم، بأكمـل

---

[120] مجموعة الرسائل ١: ٨٠ .

[121] الفرقان ١٢٥ .

محبة في أتم معرفة: ﴿**والذين آمنُوا أَشَد حبا ـ**﴾ البقـرة – ١٦٥. ومن هنا كانت "المحبة الإيمانية" موجبـة للـذوق الإيماني. وقد ورد في حديث الصحيحين: "ثلاث من كل فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون ا ورسوله أحب إليـه ممـا سواهما.. [١٢٢]". فجعل صلى ا عليه وسلم وجـود الإيمـان معلقا بمحبة ا ورسوله.

إن الولاية الحق، تتجلى في التمسك بتعاليم الإسلام، حتى في حال العقوبة الشرعية، فالمؤمن الحـق يـدرك أن هـذه العقوبة شرعت رحمة من ا تعالى بعباده، إذ أنها صـادرة عن رحمة ا بالخلق، وإرادة الإحسان إليهم. ومن هنا وجب على من يطبق هذه العقوبة، أن يكون هدفه الإحسـان إلـى الناس والرحمة بهم تماما مثلما يفعل الطبيب بالمريض[١٢٣].

وهناك أمور يؤمن بها كل مسلم، لكن صادف أن شرطها شيوخ الفتوة. منها ما أمر ا تعالى به ورسـوله صـلى ا

---

[122] بخاري: إيمان ٩ .

[123] البعلي الدمشقي: الأخبار العلمية في الاختبارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٨٨ ط ١٣٦٩ هـ مكتبة الرياض الحديثة .

عليه وسلم. كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم. ومنها ما هو مستحب كالعفو عن الظـالم، واحتمال الأذى، وبذل المعروف الذي يحبه ا ورسوله.

وهناك أمور يجب على المسلم اجتنابها، منها مـا نهـى عنه ا ورسوله. مثل التحالف الذي يكون بين أهل الجاهلية، أي أن كلا منهما يصادق صديق الآخر في الحق وفي الباطل ويعادل عدوه في الحق والباطل، ففي ذلك تحليـل الحـرام، وتحريم الحلال، وهو ما يأباه الشرع الكريم [١٢٤].

إن العبرة في الولاية، بإتباع القـرآن الكـريم والسـنة النبوية، قال تعالى:

﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ طه ١٢٤.

فلو لم يفعل المرء ذلك كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، فكل هذا يكون من الشيطان.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي ا تعالى عنه، يقرأ في صلاة الفجر: ﴿ **إنما أشكو بثي وحزني إلى ا** ﴾ (يوسف

---

[124] مجموعة الرسائل ١: ١٥٠

٨٦) ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف.

وكذلك كان الشيخ عبد القادر يوصي بأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر والرضا بالأمر المقدور.

ويقول أبو سليمان الداراني: "إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة". ومعناه أن الزاهد الحق، هو من يوجه كل اهتمامه إلى تطبيق الشرع أمرا ونهيا.

ومثل هذا نجده لدى الجنيد، الذي لم ينكر عليه ابن تيمية مواقفه ويقول الجنيد عن مدى تمسكه بالشرع:

"علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن، ويكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدى به [١٢٥]".

وهكذا يجب على المتصوفة، أن يعيدوا النظر في مواقفهم ومناهجهم، وأن يضعوا أصول الشريعة نصب أعينهم، إن قالوا أو فعلوا.

---

[125] الفرقان ٦٥ .

إنه ليس من حق المسلم، أن يختلف مع الرسول صلى ا عليه وسلم فيما راسله ا تعالى به، لكنه إذا خالف رأي بعض الفقهاء، لم يكن لأحد أن يلزمه بقوله المخالف، أو يصفه بأنه خالف الشرع.

وليعلم الناس جميعا، أن الإسلام لا ينسخ أبدا، وأنه لا يقع فيه تحريف، إلا ممن يلبسون الحق بالباطل، لكن لا بد أن يقيم ا تعالى في الدين من تقوم به الحجة خلفا عن الرسل، ليحق ا الحق ويبطل الباطل ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

"من اتبع ما جاءت به الشريعة، وأعرض عن السبل المبتدعة، فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة، وإن لم يعرف حقائق الأمور، بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة، خلف الدليل الهادي، فإنه يصل إلى مقصوده، ويجد الزاد والماء في مواطنه [126]".

وقد أيد ا تعالى رسوله صلى ا عليه وسلم، بأن جمع له جميع أنواع المعجزات والخوارق، كما أمر سبحانه بطاعة

---

[126] مجموعة الرسائل ١: ٥٧ .

الرسول واتباعه، وورد ذكر ذلك في نحو أربعين موضعا مـن القرآن الكريم، مثل: ﴿ **من يطِع الرسولَ فَقَد أطَاعَ ا ً** ﴾ ٨٠.

وإن احترام الرسول صلى ا عليه وسلم أمـر واجـب بالإضافة إلى طاعته، وقد حكى أبو بكـر الفارسـي، مـن أصحاب الشافعي، إجماع المسلمين على أن حد مـن سـب النبي صلى ا عليه وسلم، هو القتل، أما من سبب غيره فإن حده هو الجلد. [١٢٧].

إن محمدا صلى ا عليه وسلم. هـو القـدوة والأسـوة الحسنة. وكل ما جاء به من تعاليم ربه تعالى، تحتـاج إليـه النفوس، أكثر من احتياجها إلى مقومات الحياة:

"بمحمد صلى ا عليه وسلم، تبين الكفر مـن الإيمـان، والربح من الخسران، والهدى من الضـلال، والنجـاة مـن الوبال، والغي من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنـة من أهل النار، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل من أنعم ا عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من سبيل

---

127 ابن تيمية: الصارم المسلول ص ٤ ١٩٧٥ دار الجيل – بيروت .

المغضوب عليهم والضالين" [128].

ولا يخرج كلام ابن تيمية في هذا النص، عما تكلم به أحد الصوفية وهو ابن عطاء ا السكندري، حيث يرى أن محمدا صلى ا عليه وسلم أعرف الخلق با تعالى: "كـان عليـه السلام أفضل الخلق، وإمام العالم، و... لكن أعطى الربوبية حقها، وذلك لكمال معرفته، ونهاية علمه [129]".

ومن المتفق عليه بين أئمة الإسلام، أن النبي أفضل مـن الولي الذي ليس نبيا. كذلك قرر القرآن الكريم، أن عبـاد ا تعالى السعداء، مرتبون في أربع مراتب، هي ما جـاء فـي القرآن الكريم:

﴿ **ومن يطِعِ ا والرسولَ فأُولئِك مـع الـذِين أَنْعـم ا علَيهم من النبِيين والصديقِين والشهداءِ والصالِحِين وحسن أُولئِك رفِيقًا**﴾ النساء ٦٩.

---

[128] ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – جمع وترتيب عبد الرحمن النجدي ١: ٥ ط ا ١٣٨١ هـ مطابع الرياض .

[129] ابن عطاء ا السكندري: القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد "ا " ص ٩٨ محمد علي صبيح بالقاهرة .

إن الطاعة هنا تستلزم تطبيق أوامر الشرع ونواهيه. وليست الشفاعة لمن كان أكثر صلاة على النبي صلى ا عليه وسلم من غيره فقط، فإن هذا بعض من كل، وهو تطبيق الشرع بأكمله.

وقد ترتب على فهم بعض الصوفية للشفاعة، بهذه الصورة، أن بالغوا حيث ذهبوا إلى أن الشفاعة هـي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له، وهـذا ادعاء ينقصه الدليل، كما يستحيل إقامة الدليل عليه [١٣٠].

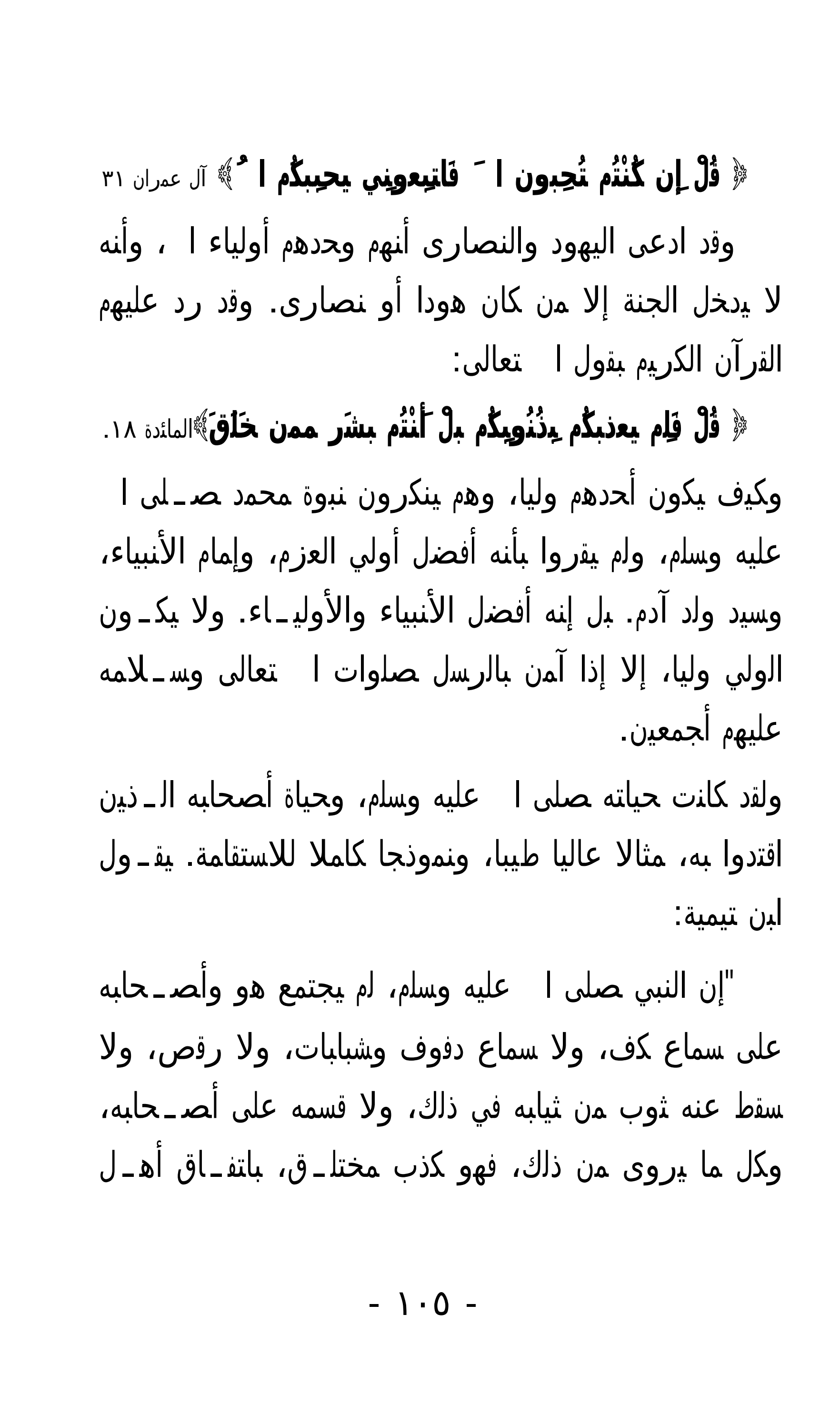
ولا بد أن يعلم كل مسلم، أنه لا شفاعة دون هدايـة، ولا هداية دون أداء الواجب المشروع. وفي حديث الصـحيحين قوله صلى ا عليه وسلم:

"إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم". (بخاري: اعتصام ٢، ومسلم حج ٤١٢).

ولقد كانت بعثة محمد صلى ا عليه وسلم، هي الفارق بين أولياء ا تعالى، وبين أعدائه. وعليه فـإن الولايـة تابعـة لأتباعه ظاهرا وباطنا:

---

130 الحسنة والسيئة ١٥٣ .



﴿ قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبون ا ´ فَاتبِعونِي يحبِبكُم ا ُ ﴾ آل عمران ٣١

وقد ادعى اليهود والنصارى أنهم وحدهم أولياء ا ، وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. وقد رد عليهم القرآن الكريم بقول ا تعالى:

﴿ قُلْ فَلِم يعذبكُم بِذُنُوبِكُم بلْ أَنْتُم بشَر ممن خَلَقَ﴾المائدة ١٨.

وكيف يكون أحدهم وليا، وهم ينكرون نبوة محمد صـلى ا عليه وسلم، ولم يقروا بأنه أفضل أولي العزم، وإمام الأنبياء، وسيد ولد آدم. بل إنه أفضل الأنبياء والأوليـاء. ولا يكـون الولي وليا، إلا إذا آمن بالرسل صلوات ا تعالى وسـلامه عليهم أجمعين.

ولقد كانت حياته صلى ا عليه وسلم، وحياة أصحابه الـذين اقتدوا به، مثالا عاليا طيبا، ونموذجا كاملا للاستقامة. يقـول ابن تيمية:

"إن النبي صلى ا عليه وسلم، لم يجتمع هو وأصـحابه على سماع كف، ولا سماع دفوف وشبابات، ولا رقص، ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك، ولا قسمه على أصـحابه، وكل ما يروى من ذلك، فهو كذب مختلـق، باتفـاق أهـل

المعرفة بسنته "[131].

وبالرغم من أن محمدا صلى ا عليه وسلم، أفضل خلق ا تعالى وأكرمهم عليه فإنه خلق مما خلق منه البشر، فليس مخلوقًا من نور، لأن البشر لم يخلق أحدهم من نور.

وإن كل ما أخبر به الأنبياء، عن ربهم عز وجل، يجـب الإيمان به وطاعته. أما الأولياء فلا تجـب طـاعتهم، بـل يعرض أمرهم على الكتاب والسنة، فما وافقه وجب قبولـه، وما خالفه وجب رده، لكن يعذر صاحبه، إذا كان قد اتقى ا ما استطاع لقوله تعالى: ﴿**فَاتقُوا ا ما استَطَعتُم**﴾ التغـابن ١٦ وقوله سبحانه: ﴿ **اتقُوا ا حق تُقَاتِهِ**﴾ آل عمران ١٠٢.

والرسل واسطة بين ا تعالى وبين خلقه، في تبليغ أمره ونهيه، وتحليل الحلال وتحريم الحرام. لكنهم ليسوا وسـطاء في عمليات الخلق والرزق والهداية، فهذا تعالى وحده:

"فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى ا ، من غير متابعة محمد صلى ا عليه وسلم، فهو كافر، مـن أوليـاء

---

131 مجموعة الرسائل ١: ١٤٩ .

الشيطان[١٣٢]".

وربما تفاضل الأولياء، بحسب درجة اتباعهم لما جاء به الرسول صلى ا عليه وسلم، وضابط ذلك هو الإيمان المفصل، لأنه أكمل الإيمان ومن هنا كان نزول المؤمنين في درجات الجنة كل حسب درجة إيمانه وتقواه.

***

وقد عالج ابن تيمية أيضا، موقف الصوفية من الحديث النبوي. ولا غرو في ذلك. فقد نشأ ابن تيمية، وهو مهتم بالحديث النبوي: سماعا وكتابة وحفظًا. وكان من أوائل الكتب التي حفظها "الجمع بين الصحيحين" للحميدي. ثم تابع الاستفادة من شيوخ عصره في الشام، حتى أخذ في رواية الحديث.

وقد كان من ثمار متابعته للحديث الشريف، اتصافه مقدرة نقية بناءة، بسبب الرواية والدراية. ومن هنا فقد عد لدى معاصريه صاحب ذاكره قوية وعقلية متميزة، فقالوا عنه: "كل حديث لا يعرفه ابن تيمية، فليس بحديث".

---

132 الفرقان ١٩

ويحكي البزار أن أحد المحدثين، كان يقرأ أمام ابن تيمية بعض كتب الحديث، وكانت قراءته سريعة. فعارضـه ابـن تيمية في اسم رجل من سند الحديث قد ذكره القارئ بسرعة، فلما راجعوا المكتوب، وجدوه كما قال ابن تيمية:

"فانظروا إلى هذا الإدراك السـريع، والتنبيـه الـدقيق العجيب، ولا يقدر على مثله إلا من اشتدت معرفتـه وقـوي ضبطه [١٣٣]".

وكان ابن تيمية، يكره البدع كراهية شديدة، ومـن ذلـك نسبة أي شيء إلى رسول ا صلى ا عليه وسلم، دون أن يكون حقا، فإن صاحبه يستحق التعزير الرادع [١٣٤].

وفي جميع مؤلفاته يأخذ بالحديث إذا صح، ويقدمه علـى قول كل قائل من عالم ومجتهد، دون أن يخشى أحـدا مـن الخلق، وهذا راجع إلى قوة اطلاعه على الحديث وعلومه.

"معرفته وبصره وبسنة رسول ا صلى ا عليه وسلم، وأقواله وأفعاله وقضـاياه، ووقائعـه وغزواتـه، وسـراياه

---

133 البزار: الأعلام العلية ٣١ .

134 ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ١: ٣

وبعوثه، وما خصه ا تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه "[135].

ومن رأي ابن تيمية، أن كل قائل يحتج لقوله، لا به، إلا ا ورسوله وكان لا يذكر رسول ا صلى ا عليه وسـلم، إلا وهو يصلي ويسلم عليه.

إن اتباع الرسول صلى ا عليه وسلم لا يعني الإحاطـة التامة بجميع أحاديثه صلى ا عليه وسلم. لكن كـل مسـلم ينهل منها حسب قدرته.

ذلك أن الإحاطة التامة بجميع أحاديثه صلى ا عليه وسلم، لم تكن لأحد من الأمة، غير أن التفاضل بين العلماء في ذلك، مبعثه الكثرة أو الجودة: "أما إحاطة واحد بجميع حديث رسول ا صلى ا عليه وسلم فهذا لا يمكن ادعاؤه قط [136].

إن الإتقان في الحديث النبوي أمر محمود، وكان ذلك من

---

135 الأعلام العلية ٢٤

136 ابن تيمية: رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ٧ ط ٥ / ١٣٦٩ هـ المدينة المنورة .

محاسن بعض النساك والعباد، مثل ثابت البنان، والفضيل بن عياض وأمثالهم.

ومن النساك من قد سجل عليه غلط وضعف في الحديث، مثل مالك بن دينار، وفرقد السنجي ونحوهما [١٣٧].

كذلك سجل علماء الإسلام ملاحظة هامة، هي أن كتـب الرقائق والتصوف، مشوبة بآثار منقولة، منها الصحيح ومنها الضعيف ومنها الموضوع[١٣٨]

وقد لاحظ ابن تيمية أيضا، أن كل حديث يـروى عـن النبي صلى ا عليه وسلم، في عـدة الأوليـاء، والأبـدال والنقباء والأوتاد والأقطاب إنما هو من الأحاديث الموضوعة غير الصحيحة.

كذلك يؤكد أن السلف لم يذكروا ولم ينطقوا شيئا من هذه الألفاظ، سوى لفظ" الأبدال" وأنهم أربعـون رجـلا، وأنهـم بالشام. وورد هذا اللفظ أيضا في المسند من حديث علي كرم ا وجهه، وهو حديث منقطع ليس بثابت.

---

137 مجموعة الرسائل ١: ٢٩ .

138 ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ١: ٢٣٦.

والدليل على هذا، أن عليا ومن معه من الصحابة، كـانوا أفضل من معاوية، ومن معه بالشام: "فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي "[139].

إن الخطأ جائز من الولي، لأنه ليس من شرط الولي، أن يكون معصوما لا يخطئ ولا يغلط فمن الجائز عليـه علـم بعض الشريعة والاشتباه بين أمر ونهـي، أو بـين خـارق شيطاني وكرامة. وذلك أن ا تعالى قد تجاوز لهـذه الأمـة عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه. قال تعالى:﴿ **ربنَـا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نسِينَا أَو أَخْطأْنَا**﴾ البقرة ٢٨٦.

وإن رسول ا صلى ا عليه وسلم، هو الذي فرق ا تعالى به بين الحق والباطل وبين أولياء الشيطان. ولهذا فإن أفضل أولياء ا تعالى، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسـول صلى ا عليه وسلم، واتباعا له، مثل الصحابة، وأفضلهم في الولاية أبو بكر الصديق رضي ا تعالى عنه.

والخلاصة أن كل ولي من أولياء ا تعالى، لـم يكـن كذلك، إلا باقتدائه بمحمد صلى ا عليه وسلم: أمرا ونهيـا.

---

[139] الفرقان ١٥.

ومن هنا يؤيدهم الله تعالى بملائكته، ويغمر قلوبهم بأنواره، ويكرمهم بالكرامات، كما أيد الأنبياء بالمعجزات:

"وكرامات أولياء الله تعالى، إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، وإتيان الشجر إليه[140]".

وفيما يتعلق بالمباحات، يلاحظ أنه ليس لأولياء الله تعالى شيء يتميزون به عن الناس، بملابس أو غيرها فالمظاهر ليست شرطًا في الولاية. فكم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء!.

ومما امتازت به أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أن أولياء الله تعالى فيها، يوجدون في كل ميدان، وفي كل مهنة مما أحل الله تعالى العمل بها:

"يوجدون في جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور. فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم. ويوجدون في أهل

---

140 الفرقان ١٣٩ .

الجهاد والسيف. ويوجدون في التجار والصناع والزراع"[141].

ويلاحظ الشيخ ابن تيمية، أن الـذين مزجـوا التصـوف بالفلسفة اليونانية، قد خلطوا خلطًا كبيرا فـي أمـور النبـوة والولاية، وذهبوا إلى آراء لا يقرها الإسلام.

ومن ذلك ما ذهبوا إليه، من القول بأن جبريل هو الخيال، الذي يتشكل في نفس النبي صلى الله عليه وسـلم، والخيـال تابع للعقل. وهو يأخذ – بزعمه – عن الـذي هـو أصـل الخيال، والرسول يأخذ عن الخيال.

ولا يخفى على المؤمن حقا أن الله تعـالى قـد وصـف الملائكة بصفات تباين قول هؤلاء، كقوله تعـالى: ﴿ **وقَـالُوا اتخَذَ الرحمن ولَدا سبحانَه بلْ عِباد مكْرمون**﴾ الأنبياء، الآية ٢٦.

ومن هنا كان ابن عربي وأمثاله – في رأي ابن تيميـة – من صوفية الملاحدة الفلاسفة، وليس من صوفية أهل العلـم، فضلا عن أن يكون من مشايخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل والجنيد والتستري.

ويدعي ابن عربي، أن أصل الولاية أفضل من النبـوة.

---

[141] المصدر السابق ٤٦ .

وهو أيضا يلبس على الناس بأن ولاية محمد صلى ا عليه وسلم أفضل من نبوته، وأنهم شاركوه في ولايته، التي هـي أعظم من رسالته. وهنا يحكم ابن تيمية علـى ابـن عربـي وأتباعه بقوله:

"وهذا من أعظم ضلالهم، فإن ولاية محمد لم يماثله فيها أحد، لا إبراهيم ولا موسى، فضلا عن ثلـة فيهـا هـؤلاء الملحدون[١٤٢]. ولا يحق لولي من أمة محمد صلى ا عليـه وسلم، أن يدعي أن له طريقا إلى ا تعالى، بحيث لا يحتاج فيه إلى محمد عليه السلام، فهذا الولي يصبح كافرا ملحدا.

وكذلك قد يصبح الولي شرا من اليهـود والنصـارى، إذا أعلن أنه محتاج إلى محمد صلى ا عليه وسلم، فـي علـم الظاهر، دون علم الباطن، أو في علم الشـريعة، دون علـم الحقيقة.

وربما آل أمر هؤلاء إلى قول من يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض، حيث يدعي أن محمدا صلى ا عليه وسـلم علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان. كما يدعي هذا

---

[142] الفرقان ٨٣ .

الولي، أنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسـنة، وهـذا خروج على الشرع [١٤٣].

وقد اتفق الصوفية العارفون، على أن ما يحصل بالزهـد والعبادة والرياضة والتصفية والخلـوة وغيـر ذلـك مـن المعارف، لا بد أن يطابق الكتاب والسنة والعقل الصـريح، وإلا كان باطلا [١٤٤].

وكان من هؤلاء الصوفية الاتحادية، شيخ تعظمه طائفـة من الأعاجم، ويدعى: "خاتم الأولياء" زاعما أنه يفسر العلـم بوجهين، وأن النبي صلى ا عليه وسلم، قد فسـره بوجـه واحد، وأنه هو لهذا أكمل من النبي صلى ا عليـه وسـلم. وهذا ضلال بين.

ومن هؤلاء مثلا: الحكيم الترمذي، الذي يزعم أنه أعلم با من خاتم الأنبياء، وأن تقدمه عليه بالعلم با ، وتقـدم خـاتم الأنبياء عليه بالتشريع لا غير [١٤٥].

---

143 المصدر السابق ٨٢ .

144 بيان تلبيس الجهمية ١: ٢٦٦

145 مجموعة الرسائل ٤: ٦٦

وعلى هذا فإنه يمكن حصر الغلو في طائفتين: الشـيعة الذين يعتقدون الألوهية في الأنبياء والأئمة من أهل البيت. ثم طائفة من جهال المتصوفة يعتقدون مثل هـذا فـي الأنبيـاء والصالحين:

"فمن توهم في نبينا، أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهيـة والربوبية فهو من جنس النصارى وإنما حقوق الأنبيـاء مـا جاء به الكتاب والسنة عنهم[١٤٦]".

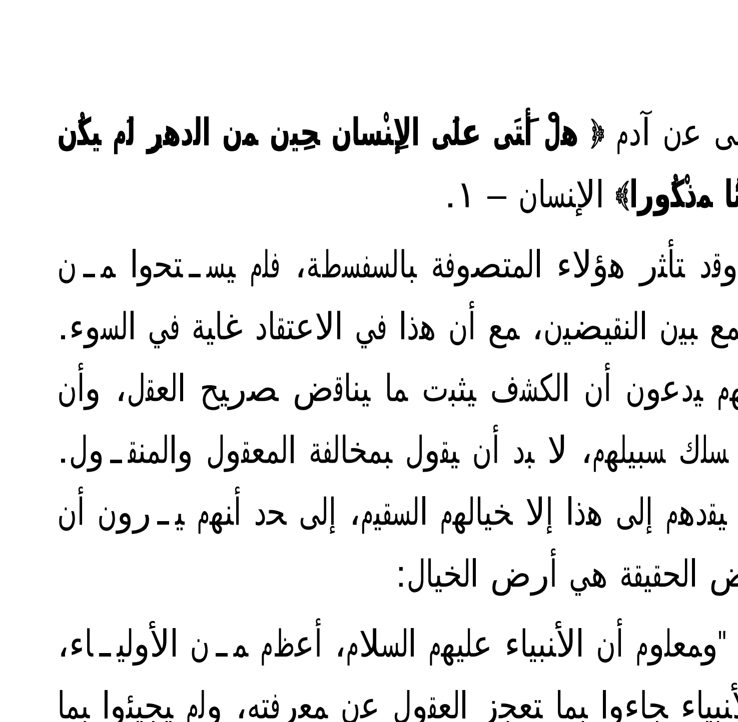
ويرد ابن تيمية، على ما احتج به ابـن عربـي، علـى نظرية النور المحمدي، بحديث: "كنت نبيا وآدم بـين المـاء والطين". فهذا حديث لا أصل له، إذ أن آدم لم يكن بين الماء والطين قط، فإن ا خلقه من تراب، وخلط التـراب بالمـاء حتى صار طينًا، فلم يكن له حال بين الماء والتراب. وصحة الحديث: "كتبت نبيا وآدم بين الـروح والجسـد [١٤٧]". لقولـه

---

[146] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١: ٦٦

[147] مجموعة الرسائل ٤: ٨. وفي أحمد ٤: ٦٦ "... يا رسول ا : متي جعلت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد".

=



تعالى عن آدم ﴿ **هلْ أتَى على الإنْسان حِين من الدهرِ لم يكُن شَيًئا مذْكُورا**﴾ الإنسان – ١.

وقد تأثر هؤلاء المتصوفة بالسفسطة، فلم يستحوا من الجمع بين النقيضين، مع أن هذا في الاعتقاد غاية في السوء. لكنهم يدعون أن الكشف يثبت ما يناقض صريح العقل، وأن من سلك سبيلهم، لا بد أن يقول بمخالفة المعقول والمنقول. ولم يقدهم إلى هذا إلا خيالهم السقيم، إلى حد أنهم يرون أن أرض الحقيقة هي أرض الخيال:

"ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام، أعظم من الأولياء، والأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه فهم يخبرون بمحارات العقول، لا

=

وفي الترمذي/ مناقب: قال أبو هريرة: " قالوا: يا رسول ا – صلى ا عليه وسلم – متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد" .

ويقول الترمذي: " هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه" .

بمحالات العقول" [148].

وقد تقول بعض الصوفية، من أمثال هؤلاء، على الرسول صلى ا عليه وسلم، حيث يدعون أنه تواجد لسماع بعـض أبيات من الشعر، حتى سقطت البردة عن منكبه. فهذا حديث كاذب دون ريب.

وهناك ما هو أكذب من ذلك، وهو ما ادعوه من أنه عليه السلام، قد مزق ثوبه، وأن جبريل أخذ قطعة منـه، فعلقهـا على العرش. ومنه ما روي كذبا عن عمر أنه قـال: كـان النبي صلى ا عليه وسلم، وأبو بكر يتحدثان، وكنت بينهما كالزنجي [149]. ويلحق بهذا اليوم ما يراه القاديانيـة، مـن أن النبوة لم تنقطع بعد محمد صلى ا عليه وسلم.

إن أولياء ا تعالى حقيقة، لا يصدر منهم شـيء ممـا سبق، من الكذب على ا ورسوله بل إن أولياء ا تعـالى، هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى:

﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ا ِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.الَّذِين**

---

148 المصدر السابق ١: ٨١ - ٨٢

149 الفرقان ١٦ .

آمنُوا وكَانُوا يتقُون﴾.

وفي ذلك يقول ابن تيمية:

"لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلـغ، ولـم يؤمن بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسـلم، فلـيس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى كالأحبار والرهبان مـن علمـاء اليهود والنصارى وعبادهم [150]".

إنه لا مفر من أن يتابع الولي شرع الرسول صـلى الله عليه وسلم، وأن يزن أقواله وأفعاله بميـزان الشـرع، لأن الولي ليس بمعصوم.

وبالإضافة إلى هذا، فإن الولي عليه التحلي بالصبر، لأنه معين على أداء الواجب، وكل ما هو كذلك فهو واجب. ومن هنا كانت حكمة الشارع حين قرنه بالصلاة في أكثـر مـن خمسين موضعا.

وعلى الولي كذلك، أن يتحلى بالتوكل، لما فيه من جلب المنفعة ودفع المضرة: ﴿**ومن يتَوكلْ على الله فَهو حسـبه**﴾ الطلاق ٣.

---

150 المصدر السابق ١٩ .

ولا بد من مصاحبة الإخلاص للتوكل، فإن مجموعهما يؤدي إلى نتيجة طيبة.

"إن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿**إياك نَعبد وإياك نَستَعِين**﴾. فهاتان الكلمتان قد قيل "إنهما تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء [١٥١]".

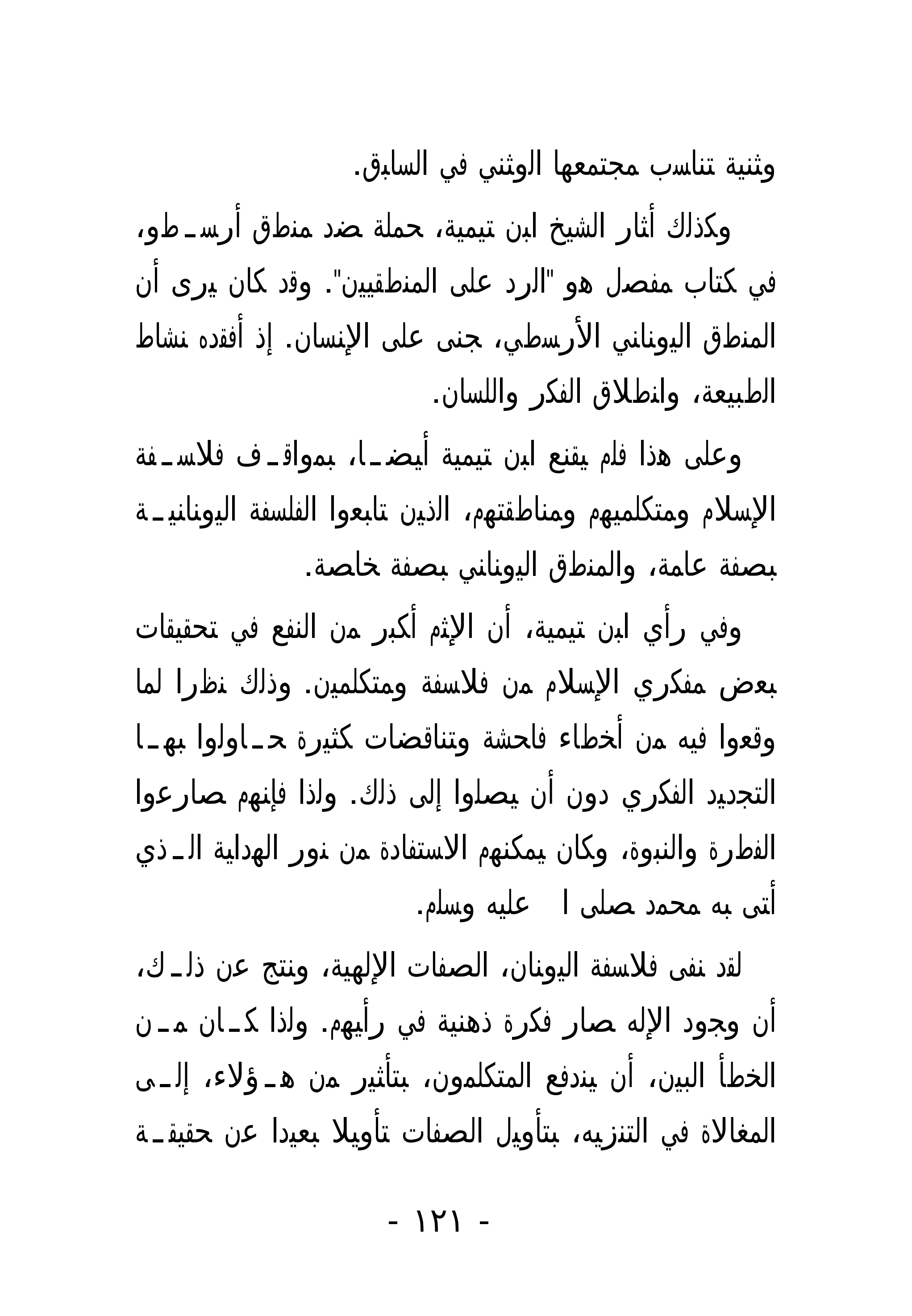
ويشير ابن تيمية، إلى بعض المنافقين من الصوفية، الذي يفضلون شيوخهم على النبي صلى ا عليه وسلم، ويرى أن هؤلاء منافقون كفار، تجب مقاتلتهم بعد قيام الحجة عليهم [١٥٢]".

وكان ابن تيمية، يعارض فلسفة اليونان، ويركز على تسفيه بحوثها في مجال واحد، ولم يكن لها أن تجرؤ عليه، وهو"الإلهيات". لقد كانت هذه الفلسفة فقيرة وعاجزة في هذا الميدان. كذلك يرى أن أسوأ ما في تلك الفلسفة هو رفضها للحقائق الغيبية وإنكارها. وهي على هذا ليست إلا فلسفة

---

[151]جامع الرسائل ١: ٨٢

[152] مجموعة الرسائل ١: ٣٣


وثنية تناسب مجتمعها الوثني في السابق.

وكذلك أثار الشيخ ابن تيمية، حملة ضد منطق أرسطو، في كتاب مفصل هو "الرد على المنطقيين". وقد كان يرى أن المنطق اليوناني الأرسطي، جنى على الإنسان. إذ أفقده نشاط الطبيعة، وانطلاق الفكر واللسان.

وعلى هذا فلم يقنع ابن تيمية أيضا، بمواقف فلاسفة الإسلام ومتكلميهم ومناطقتهم، الذين تابعوا الفلسفة اليونانية بصفة عامة، والمنطق اليوناني بصفة خاصة.

وفي رأي ابن تيمية، أن الإثم أكبر من النفع في تحقيقات بعض مفكري الإسلام من فلاسفة ومتكلمين. وذلك نظرا لما وقعوا فيه من أخطاء فاحشة وتناقضات كثيرة حاولوا بها التجديد الفكري دون أن يصلوا إلى ذلك. ولذا فإنهم صارعوا الفطرة والنبوة، وكان يمكنهم الاستفادة من نور الهداية الذي أتى به محمد صلى ا عليه وسلم.

لقد نفى فلاسفة اليونان، الصفات الإلهية، ونتج عن ذلك، أن وجود الإله صار فكرة ذهنية في رأيهم. ولذا كان من الخطأ البين، أن يندفع المتكلمون، بتأثير من هؤلاء، إلى المغالاة في التنزيه، بتأويل الصفات تأويلا بعيدا عن حقيقة

اللغة وفهم السلف الصالح.

هذا وإن كثيرا من أصحاب التصوف، قد حرصوا علـى عدم الخلط بين منهجهم في الزهد، وبين منهج الفلاسفة فـي ذلك الزهد، نظرا لوجود تباين واضح بين الطريقين [153].

وقد سلك ابن تيمية، طريقا غير الـذي سـلكه هـؤلاء المتأولة، إذ نحى التأويل جانبا، في مسألة الذات وصـفاتها، ورأى أن ورود الذات والصفات في القرآن الكـريم، يعنـي إثبات وجود الإله سبحانه، دون إثبـات أي كيـف، إذ أنـه سبحانه وتعالى ﴿**ليس كَمِثْلِهِ شَيء**﴾ الشورى ١١.

ومن أسباب معارضة ابن تيميـة لـبعض المتصـوفة، تأثرهم بالفلسفة الإشراقية يونانية وهندية، مع مزجها بالعقائد الإسلامية مزجا قويا.

ومن أمثلة ذلك سقوط التكاليف عن الواصلين، والظـاهر والباطن، ووحدة الوجود. وقد غفل هؤلاء عـن أن القـرآن الكريم قد حكم بالكفر على من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا،

---

153 ا د. محمد كمال جعفر: التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص ٦ دار الكتب الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٠ م .

فما بالنا بغيرهم!

ولا يرتاب مسلم عاقل في أن النبي أفضل من الفيلسوف، لأنه علم ما علمه الفيلسوف وزيادة، مع تمكنه من مخاطبة الجمهور، بطريقة يعجز عن مثلها الفيلسوف.

ونرى أن المقارنة هنا، بين النبي والفيلسوف، غير واردة، إلا من باب التجاوز والتسامح. ذلك أن المقارنة حقيقة، إنما تكون بين ندين أو متشابهين أو ضدين، وهذا غير موجود في هذا المقام.

وكان صوفية وحدة الوجود، يقررون أن النبي أفضل من الفيلسوف، ويسمحون بالمقارنة بينهما، مع وجود بون شاسع بين الطرفين:

"فهؤلاء المتفلسفة، ما قدروا النبوة حق قدرها. وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم. وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم، فإنهم اعتقدوا مذهبهما وتصوفوا عليه[١٥٤]".

وقد انزلق بعض متفلسفة الصوفية، فذهبوا إلى أن الأولياء

---

[154] ابن تيمية: النبوات ١٧٢

أفضل من الأنبياء، وأن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأولياء علم التوحيد ولذلك ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد صلى ا عليه وسلم[155]. وهذا واضح الكذب وافتراء.

وهناك بعض المتصوفة المتفلسفة، الذين يرون أن أرسطو كان هو خضر موسى. كما أن بعض هؤلاء يفضل الفلاسفة على الأنبياء في العلم، ويرى أن هارون كان أعلم من موسى، وأن هارون والخضر وعليا، كانوا فلاسفة مطلعين على الحقائق العملية أكمل من غيرهم، ولذلك وضعوا الشرائع العملية. وقد بلغ الأمر بهؤلاء المتفلسفة، أن فضلوا فرعون على موسى[156]. وهذا أمر قد بلغ غاية السوء.

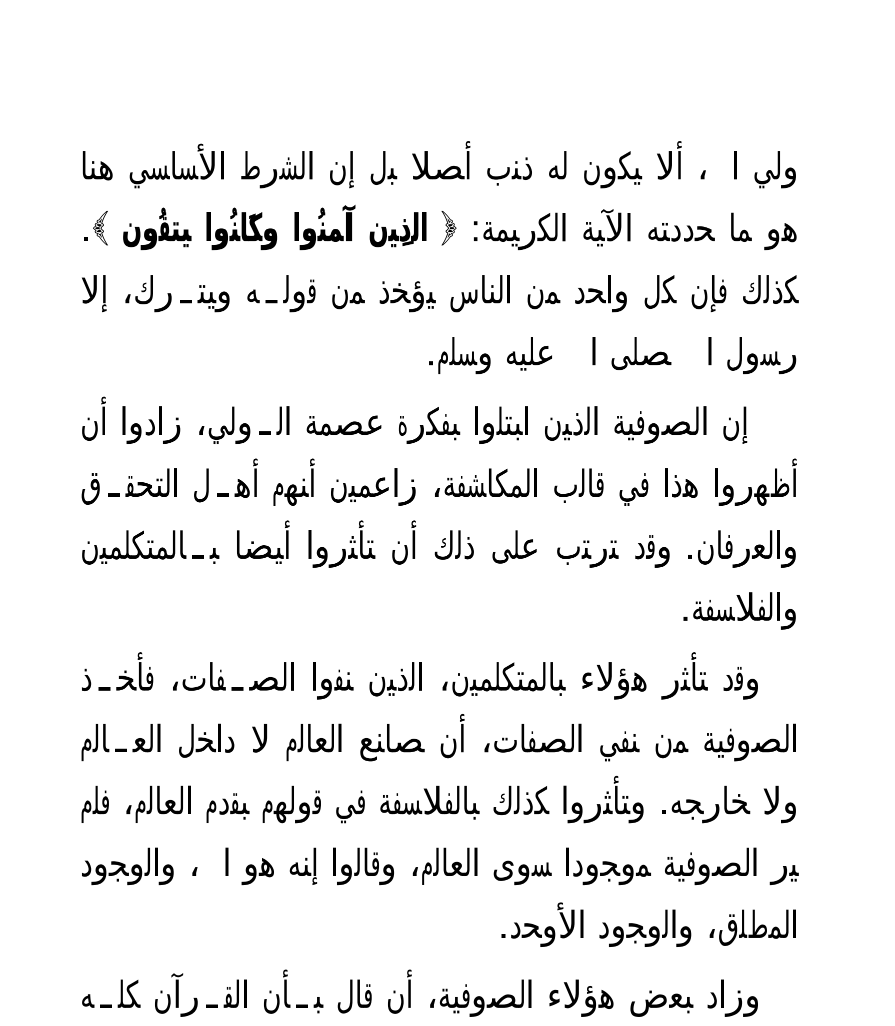
وقد كان للغلاة الذين قالوا بعصمة الأئمة، تأثير ظاهر في طائفة من النساك والعباد، الذين ادعوا الولاية وعدم الذنوب لبعض المشايخ.

وقد غفل هؤلاء ومن تابعهم، عن أنه ليس من شروط

---

155 المصدر السابق ونفس الصفحة.

156 الرد على المنقيين ١٨٣.



ولي ا ، ألا يكون له ذنب أصلا بل إن الشرط الأساسي هنا هو ما حددته الآية الكريمة: ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾. كذلك فإن كل واحد من الناس يؤخذ من قولـه ويتـرك، إلا رسول ا صلى ا عليه وسلم.

إن الصوفية الذين ابتلوا بفكرة عصمة الـولي، زادوا أن أظهروا هذا في قالب المكاشفة، زاعمين أنهم أهـل التحقـق والعرفان. وقد ترتب على ذلك أن تأثروا أيضا بـالمتكلمين والفلاسفة.

وقد تأثر هؤلاء بالمتكلمين، الذين نفوا الصـفات، فأخـذ الصوفية من نفي الصفات، أن صانع العالم لا داخل العـالم ولا خارجه. وتأثروا كذلك بالفلاسفة في قولهم بقدم العالم، فلم ير الصوفية موجودا سوى العالم، وقالوا إنه هو ا ، والوجود المطلق، والوجود الأوحد.

وزاد بعض هؤلاء الصوفية، أن قال بـأن القـرآن كلـه شرك، وإنما التوحيد في كلامهم. ولما تبين كـذب كلامهـم ومخالفته للشرع والعقل، ادعوا أن هذا قد ثبت عنـدهم فـي الكشف، وأن من يصل إلى العالم اللدني، يمكنه الاستغناء عن العقل والنقل.

وربما كان أمثال هذه الأفكار، سببا في اعتقاد بعض الباحثين، مثل "هوفر هيلر" أن انتشار التصوف في مكان ما، إنما هو قرين التخلف الحضاري لهذا المكان[157]. وليس هذا على إطلاقه.

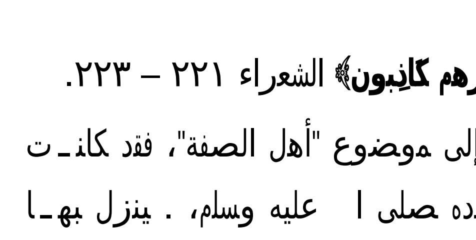
إن أهل السلوك المخلصين، قد اتفقوا على أن من ادعى باطنا يخالف الظاهر، فهو منافق زنديق. فالمنافق يتظاهر بأنه مقتنع بالإسلام في كل صغيرة، وكبيرة، لكنه يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك تماما.

وربما كان لبعض المشركين، اجتهاد في العلم والعبادة والزهد، مع أنه لا يتبع الرسل، ولهذا لا يمكن أن يكون وليا بأي حال. ومثل هذا تتسلط عليه الشياطين، فتكون لهم تصرفات خارقة من جنس الكهانة والسحر.

ومصدق هذا قوله تعالى:﴿ **ومن يعشُ عن ذِكْرِ الرحمن نُقَيض له شَيطَانًا فَهو له قَرين**﴾ الزخرف ٣٦. وقال سبحانه تعالى:﴿ **هلْ أُنَبئُكُم على من تَنَزلُ الشياطِين. تَنَزلُ على كُل أَفاكٍ**

---

157 Heiler، F: Prayer، History and sychologyLondon 1958: P 137



أَثِيم. يلْقُون السمع وأَكْثَرهم كاذِبون﴾ الشعراء ٢٢١ – ٢٢٣.

ويشير ابن تيمية، إلى موضوع "أهل الصفة"، فقد كانـت الصفة في شمالي مسجده صلى ا عليه وسلم، . ينزل بهـا الغرباء، الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عنـدهم، لأن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى ا عليـه وسـلم بالمدينة، وكان هؤلاء يقلون تارة، ويكثرون أخرى.

ولم يكن الذين ينزلون بالصفة، أصحاب مزية في علم أو دين، بل كان فيهم من ارتد عن الإسلام، وقتله النبي صـلى ا عليه وسلم، مثل العرنيين الذين قتلـوا راعـي الرسـول صلى ا عليه وسلم، واستاقوا منه الذود، ولهذا طبق علـيهم النبي صلى ا عليه وسلم، حد قطاع الطريق.

ومن أجل هذا، نفى ابن تيمية بشدة، ما نسب إلى أهـل الصفة من أنهم كانوا مستغنين عنه صلى ا عليـه وسـلم، وأنه لم يرسل إليهم، وأن ا تعالى أوحى إليهم في البـاطن، ما أوحى إلى رسوله عليه السلام ليلة المعراج. وهنا خطـأ واضح، لأن المعراج كان بمكة، أما الصـفة فلـم تكـن إلا

بالمدينة [١٥٨].

وعلى المسلم أن يحذر من اشتباه الورع الفاسد، بـالجبن والبخل، لأن كلا منهما فيه ترك ما. ففي صـحيح الحـديث الذي رواه الترمذي قوله صلى ا عليه وسلم: "شر ما فـي رجل شح هالع وجبن خالع" وأخرجه أحمد وأبو داود.

وقد يترك الإنسان العمل، ظنا منه أن ذلك ورع، وإنمـا هو كبر وعلو. ومن هنا وجب مراعاة النية، لحديث: "إنمـا الأعمال بالنيات" أخرجه البخاري: بدء الـوحي ١. ومسـلم: إمارة ١٥٥.

وفي ذلك يقول ابن تيمية:

"كثير مما يوجد من فساد أمور الناس، إنما هو لتعطيـل الحد بمال أو جاه. وهذا من أكبر الأسباب، التي هـي فسـاد أهل البوادي والقرى والأمصار[١٥٩]".

وبذلك كان من المسلم به أن ثمرة الزهد، لها انعكاسـها دائما على الجانب الخلقي للمرء إيجابا أو سلبا.

---

[158] الفرقان ١٢- ١٣

[159] السياسة الشرعية ٨٧.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الشيخ ابن تيمية، قد تعرض لإبطال بعض مصطلحات الصوفية، التي قالوا بها دون دليل:

ومن هذه المصطلحات "خاتم الأولياء" إذ يرى ابن تيمية، أن هذه مرتبة موهومة لا حقيقة لها، ولا تندرج إلا تحت باب الادعاء لدى المبطلين من الصوفية.

وقد ذهب هؤلاء، إلى أن خاتم الأولياء أفضل الأوليـاء، قياسا على خاتم الأنبياء، وأن خاتم الأولياء أفضل من خـاتم الأنبياء[160]. نبرأ إلى ا تعالى من مقالتهم التي ما أنـزل ا بها من سلطان.

ويدعي هؤلاء المتصوفة، أن الولي يأخذ عن ا تعـالى بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك، ومن هنـا فضـلوا خاتم الأولياء.

"وهذا باطل وكذب، فإن الـولي لا يأخـذ عـن ا إلا بواسطة الرسول إليه. وإذا كان محدثا قد ألقي إليـه شـيء، وجب عليه أن يزنه بما جـاء بـه الرسـول مـن الكتـاب

---

[160] الفرقان ٨٠.

والسنة[١٦١]".

ومن المعلوم أن أفضل أولياء الأمـة الإسـلامية، هـم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار. كذلك فإن خيـر هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر. وليس آخر الأوليـاء أفضل الأولياء، لكن آخر الأنبياء أفضل الأنبياء.

وقد ثبت بالأدلة الشرعية، فضل محمد صـلى ا عليـه وسلم، كقوله في الحديث: "أنـا سـيد ولـد آدم ولا فخـر" (أخرجه أبو داود: سنة ١٣ وابن ماجه: زهـد ٣٧. وفـي حديث آخر:"آتي باب الجنة يوم القيامـة، فأسـتفتح، فيقـول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، ألا أفتح لأحد قبلك [١٦٢]". (مسلم: إيمان ٣٣٣)

ويبطل ابن تيمية كذلك ما ادعاه الصوفية من "الغـوث" لأن هذا اللفظ لا وجود له في كتاب ا تعالى، ولا في سـنة رسوله صلى ا عليه وسلم، لا بإسناد صحيح، ولا بإسـناد ضعيف.

---

[161] مجموعة الرسائل ٤: ٦٤

[162] الفرقان ٨١

كذلك فإن فكرة الغوث تقتضـي الواسـطة فـي قضـاء الحوائج، بين الخلق والخالق، وهذا باطل شرعا. ويقول ابـن تيمية:

"أما لفظ الغوث والغياث، فلا يستحقه إلا ا تعالى، فهو غياث المستغيثين، لا يجوز لأحد الاستغاثة بغيـره لا بملـك مقرب، ولا نبي مرسل"[١٦٣].

لقد كان السلف، يحذرون من فتنة العالم الفاجر، والعابـد الجاهل، لأن فتنتهما فتنة لكل مفتون. أما الولي حقـا، فهـو المؤمن التقي، الذي لا يصدر عنه أي لون من ألوان الفتنـة، مع تفاضل الأولياء في مراتب الولاية، تبعـا لتفـاوتهم فـي مراتب التقوى.

ومن بدع بعض المتصوفة أيضا، ما ادعـوه مـن لفـظ "القطب"، ومفهومه عندهم هو أنه يجب أن يكون فـي كـل زمان شخص واحد، هو أفضل الخلق عند ا مطلقا، ويكون عليه مدار صلاح الدين دون الدنيا.

فليس هناك ما يمنع أن يوجد اثنان فـي عصـر واحـد،

---

163 مجموعة الرسائل ١: ٤٨

يتكافآن في الفضل عند الله تعالى، الذي هو واسع المغفرة والرحمة.

ويقاس على هذا، إبطال "الأوتاد" و "الأبدال"، حسب مفهوم هؤلاء الصوفية، حيث إنها لم ترد في كتاب ولا في سنة، بهذا المعنى الذي يقصدونه.[١٦٤]

وقد شبه ابن تيمية، ما ذهب إليه بعض المتصوفة على النحو السالف، ببعض آراء الإسماعيلية والنصيرية، فيما ذهبوا إليه من القول بالسابق والتالي والناطق والأساس، وغيرها، مما لا أساس له من نقل أو عقل.

فالغلو قد تحكم في الفريقين، وصدرت عنهما أقوال بعيدة عن الشرع كل البعد. ومنها ما زعمته الرافضة، من أن الاثني عشرية معصومون من الخطأ، مع أنه لا عصمة بعد النبي عليه الصلاة والسلام.

كما يرى الرافضة، أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم، يكون حجة على المكلفين، ولا يتم الإيمان إلا به. ويدعون أنه كان صبيا دخل السرداب. وقد رد ابن تيمية

---

[164] المصدر السابق ١: ٥٠

على الرافضة والصوفية في هذا، إذ قال:

"ليس في أوليـاء ا المتقـين، بـل ولا أنبيـاء ا ، ولا المرسلين من كان غائب الجسد دائما عن أبصار الناس. بـل هذا من جنس قول القائل بأن عليا في السحاب، وأن محمـد بن الحنفية في جبال رضوى، وأن محمد بـن الحسـن فـي سرداب سامراء، وأن الحاكم في جبل مصـر، وأن الأبـدال رجال الغيب في جبل لبنان. فكل هذا ونحوه، من قول أهـل الإفك والبهتان[١٦٥]". وبهذا رفض ابن تيمية الفكرة التي تتحدث عن "المهدي المنتظر" بهذه الصورة التي يذهب إليها الغلاة.

إن المنهج الإسلامي الصحيح يرفض ارتكاب المحرمات بكافة أنواعها قولا وفعلا. وكل من يخالف ذلك، يجب إيقـاع العقاب الشرعي به، كما يجب على الناس رفض أقواله وعدم متابعته في شيء.

وقد أورد بعض هؤلاء حديث: "ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي [١٦٦]". فهـذا مـن الأحاديـث الموضـوعة

---

[165] المصدر السابق ١: ٥١

[166] المصدر السابق ١: ٤٠.

المكذوبة.

إن الصوفية الحق والزهاد الصادقين، يعيشـون حيـاتهم طبقا لما جاء به محمد صلى ا عليه وسلم[١٦٧] ونـر جميـع الصوفية الذين نجوا من الانحراف، يؤكـدون دائمـا علـى ضرورة التطبيق للشرع. ومن أمثلة ذلك، قول التستري:

"كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة، فهو باطل".

وقول البسطامي:

"لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، ويمشي على المـاء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيـف وقوفـه عنـد الأوامـر والنواهي[١٦٨]".

وإذا كان الضابط هنا هو العرض على الكتاب والسـنة، فإن العلوم النفسية والاجتماعية الآن، لم تستطع تقديم تفسـير مقنع لظاهرة التصوف إيجابا أو سلبا، نظرا لتركيـز هـذه العلوم على المظاهر المادية وما تدل عليه مـن مؤشـرات

---

[167] Dr. Muhammad jqp al: The way of the Muslim (Printed in Great Britain by martin's of Berwick 1979 p 49

[168] مجموعة الرسائل ١: ١٣٩، ١٦٢.

نفسية [169].

ويرى ابن تيمية، أن الروافض والباطنية، هم الذين أحدثوا بدعة المشاهد، ووضعوا في ذلك أحاديث تؤيد مذهبهم، لأنهم في الأصل يعجبون بقبور أئمتهم.

ومن هنا فقد عارض ابن تيمية، هـذه المشـاهد، وشـدد النكير على من يعظمها، لأنه فتنة بين المسلمين، وابتداع في الدين بما لم يأذن به ا تعالى.

ومن المتفق عليه لدى أئمة الإسلام، أنه لا يشرع بنـاء المساجد على القبور، ولا يصح أن تعلق عليها السـتور، أو ينذر لها أي نذر، أو يوضع فيها ذهب ولا فضة.

وكذلك لا يشرع بناء مشاهد على القبـور، ولا يشـرع اتخاذها مساجد وكثير من هذه المشاهد كذب قطعا في العراق والشام ومصر:

"وإنما دين ا تعالى، تعظيم بيوت ا وحده لا شـريك له. وهي المساجد التي تشرع فيها الصلوات جماعة وغيـر

169 Underhill: Mysticism، London، .P 44، 1919

جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية ومن القراءة والذكر والدعاء [170]". قال الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾. الجن ١٨.

وما عرضناه هنا من أمثلة للمواقف النقدية لابن تيمية، يتضح منه عدم تجني ابن تيمية على هذه الآراء وعلى أصحابها. كما يتضح منه مدى تأثر التصوف في الإسلام بعناصر أجنبية، وهذا ما يقول به بعض العلماء اليوم:

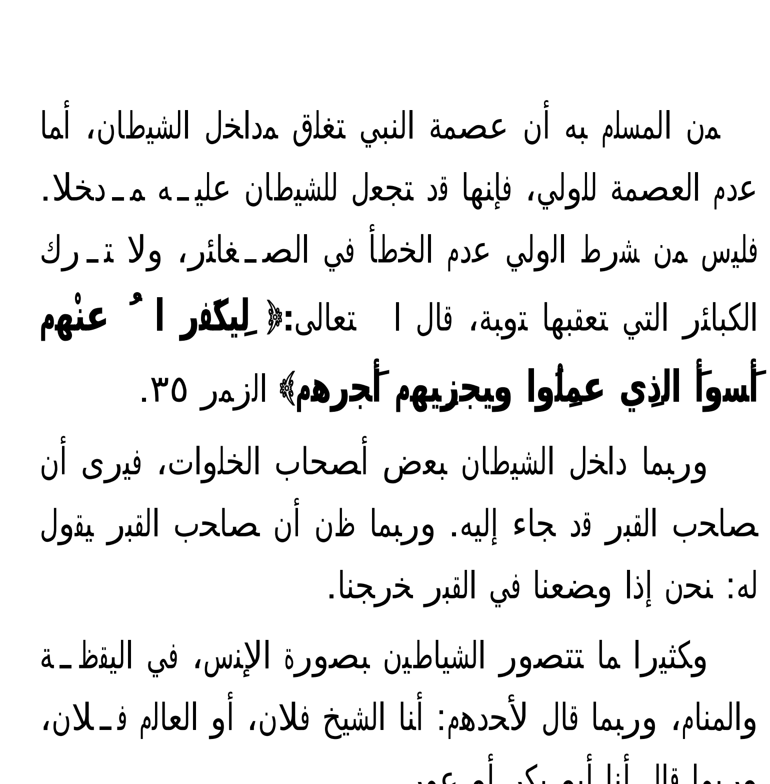
"حقا إن الإسلام في دعائمه الكبرى، ليس دينا صوفيا، ولكنه لا يتعارض مع التصوف، بل على العكس يدعو إلى شيء منه. وغلو بعض المتصوفة هو الذي دفع أهل السنة، إلى أن ينكروا عليهم جذبهم وشطحاتهم. ومن المرجح أن التيارات الأجنبية إنما بدأ أثرها واضحا بعد القرن الثاني للهجرة، يوم أن أخذ التصوف ينحو منحى نظريا وطائفيا[171]".

٢-أحوال شيطانية خارجة عن الكرامات

---

[170] مجموعة الرسائل ١: ٥٩

[171] د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ٢: ١٣٦ ط ١٩٧٦ دار المعارف بمصر.



من المسلم به أن عصمة النبي تغلق مداخل الشيطان، أما عدم العصمة للولي، فإنها قد تجعل للشيطان عليـه مـدخلا. فليس من شرط الولي عدم الخطأ في الصـغائر، ولا تـرك الكبائر التي تعقبها توبة، قال ا تعالى:﴿ **لِيكفر ا ُ عنْهم أَسوأَ الذِي عمِلُوا ويجزيهم أَجرهم**﴾ الزمر ٣٥.

وربما داخل الشيطان بعض أصحاب الخلوات، فيرى أن صاحب القبر قد جاء إليه. وربما ظن أن صاحب القبر يقول له: نحن إذا وضعنا في القبر خرجنا.

وكثيرا ما تتصور الشياطين بصورة الإنس، في اليقظـة والمنام، وربما قال لأحدهم: أنا الشيخ فلان، أو العالم فـلان، وربما قال أنا أبو بكر أو عمر.

وقد أوجب بعض العلماء على أهل الوجد من الصـوفية القود أو الدية، إذا قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسـدة، لأنهـم ظالمون.

ومن آثار الشيطان على أهل السماع الجـاهلي: الإزبـاد والإرعاد والصرخات المنكرة، والعدوان على المظلوم. ذلك أن السكر بالأصوات المطربة، قد يعادل السـكر بالأشـربة المحرمة، التي تصد عن ذكر ا تعالى وعن الصلاة. ولهذا

فسر بعض السلف قوله تعـالى: ﴿ **واستَفْزِز من استَطَعتَ مِنْهم بِصوتِك**﴾ الإسراء ٦٤ بأن الصوت هنـا هـو صوت الغناء.

ولقد لعب الوجد الشيطاني بأحدهم، فصار يرقص فوق رءوس الحاضرين. ورأى بعض المشايخ الذين يدعون الكشف، أن شيطانه قد حمله حتى رقص به.

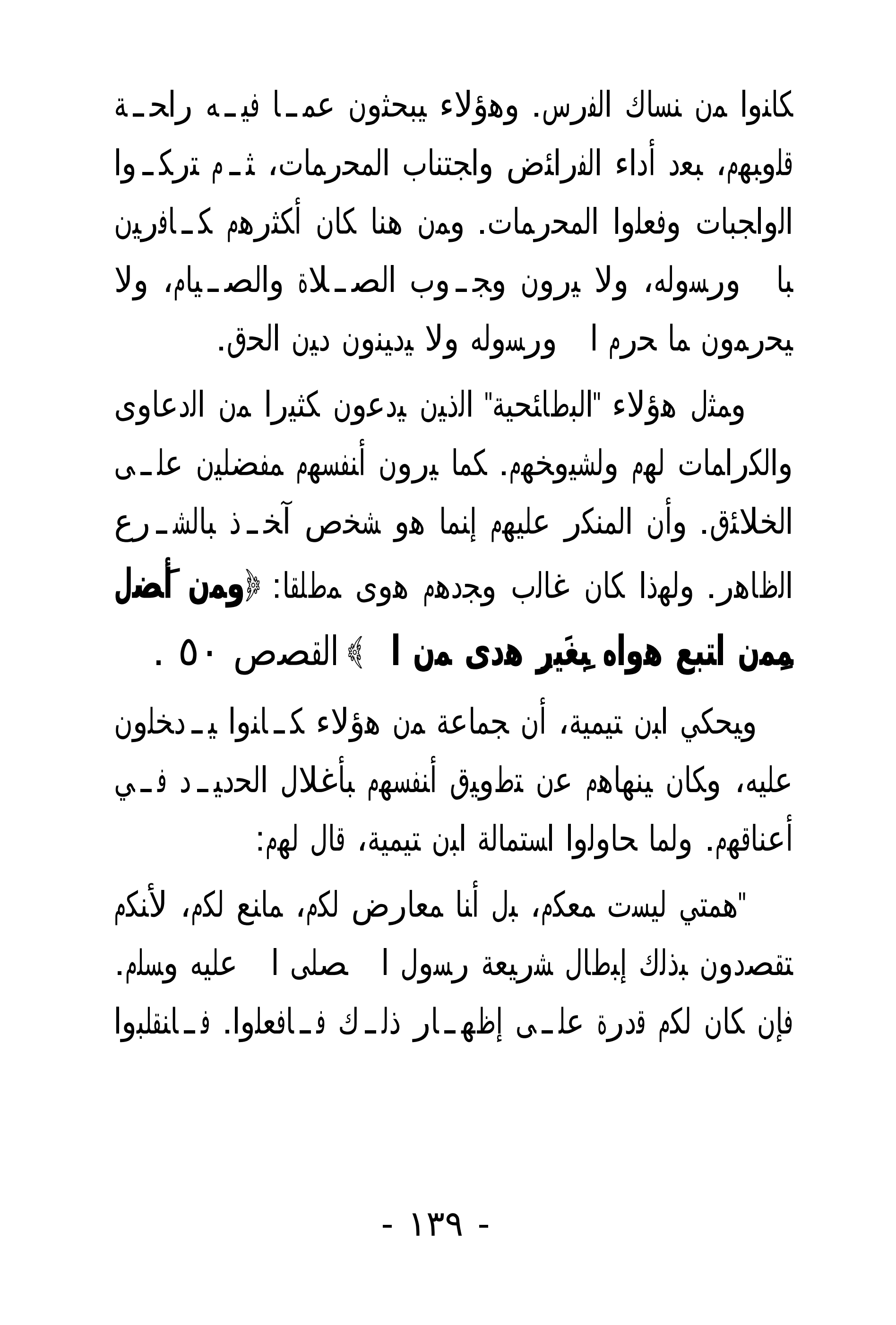
ومما هو من قبيل الزعم والادعاء، القول بـأن الملائكـة والأنبياء يحضرون سماع المكاء والتصدية، رغبة فيـه، لأن الذي يحضره إنما هم الشياطين لا غير. ويقول ابن تيمية عن ملاحدة الصوفية إنهم:

"تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين، فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكـب والأصنام[١٧٢].

ومن هذا الصنف من الصوفية "القلندرية" وهـم الـذين

---

[172] ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩٧.



كانوا من نساك الفرس. وهؤلاء يبحثون عمـا فيـه راحـة قلوبهم، بعد أداء الفرائض واجتناب المحرمات، ثـم تركـوا الواجبات وفعلوا المحرمات. ومن هنا كان أكثرهم كـافرين با ورسوله، ولا يرون وجـوب الصـلاة والصـيام، ولا يحرمون ما حرم ا ورسوله ولا يدينون دين الحق.

ومثل هؤلاء "البطائحية" الذين يدعون كثيرا من الدعاوى والكرامات لهم ولشيوخهم. كما يرون أنفسهم مفضلين علـى الخلائق. وأن المنكر عليهم إنما هو شخص آخـذ بالشـرع الظاهر. ولهذا كان غالب وجدهم هوى مطلقا: ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من ا** ﴾ القصص ٥٠ .

ويحكي ابن تيمية، أن جماعة من هؤلاء كـانوا يـدخلون عليه، وكان ينهاهم عن تطويق أنفسهم بأغلال الحديـد فـي أعناقهم. ولما حاولوا استمالة ابن تيمية، قال لهم:

"همتي ليست معكم، بل أنا معارض لكم، مانع لكم، لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول ا صلى ا عليه وسلم. فإن كان لكم قدرة علـى إظهـار ذلـك فـافعلوا. فـانقلبوا

صاغرين[173].

ما العهود التي يأخذها أمثال هؤلاء على أحد المريـدين، فليس على المريد أن يلتزم بالوفاء بها، إلا ما كانت منها دينا وطاعة ورسوله، في شرع ا تعالى، لكن عليـه كفـارة الحنث في اليمين. هذا وإن المباحات تظل كذلك إذا جعلـت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات، كان ذلك دينا لم يأذن به ا تعالى.

ولا يستبعد ابن تيمية، أن تصدر الخوارق من المجنـون والمنافق والمشرك والذمي والكاهن والساحر. لكن لا يصـح الاستدلال بذلك على ولاية الشخص، بحجة أن هذه موهبـة وعطية، يعطيها ا تعالى لمن يشاء، وليست متوقفـة علـى صلاة أو صيام. فهذا كله من الأحوال الشيطانية.

وقد وقع بعض الصوفية في خطأ آخر، وهو أنهـم يرتبـون بعض النتائج على منامات وأذواق وخيالات، ظـانين أنهـا مـن الكشف، وهي ليست كذلك بحال، ولا تدخل إلا في باب الوهم.

ومن أجل هذا ترى كلمات مجملة متشابهة، في كلام بعـض

---

[173] ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٢٤

المتصوفة لا يمكن إدراكها حقيقة. وهـذا راجـع إلـى اتبـاعهم المتشابه، وتأثيرهم بالجهمية وزنادقة الفلاسفة.

وقد حكى ابن تيمية، أن أحد البطائحية، أدخل النار في لحيتـه، أمام صاحب "حماة" فلم تصبها النار، لأنها كانت مدهونـة بـدهن الضفادع[١٧٤].

وقد كشف ابن تيمية هذه الألاعيب وكما نفى أن تكون السياحة من الإسلام في شيء، كما يفعله بعض النساك، فذلك أمر منهـي عنه.

ولما كان صاحب الكشف معرضا للصواب والخطأ، مثل صاحب النظر والاستدلال في ميدان الاجتهاد: "وجب علـيهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب ا وسنة رسـوله، وأن يزنـوا مواجيدهم ومشاهداتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب ا وسنة رسوله[١٧٥].

ومع أن عمر بن الخطاب رضي ا تعالى عنـه، كـان محدثا ملهما، فإنه كان يرد الوقائع التي تحدث له، إلى رسول

---

[174] المصدر السابق ١: ١٣٩

[175] المصدر السابق ١: ٤٣

ا صلى ا عليه وسلم فما بالنا بغيره من الناس!.

ونلاحظ أن شيخ الإسلام ابن تيمية، يقر الزهاد الفضلاء على منهجهم، لأنه منهج الكتاب والسنة. فإذا ورد شيء مـا عن أحدهم مجافيا لهذا المنهج، رد ذلك إلى أنه مكذوب على صاحبه، أو أن صاحبه أخطأ خطأ غير مقصود.

ومن ذلك أن الزنج لما دخلوا البصرة، قيل للتستري فـي ذلك، فقال: إن ببلدكم هذا من لو سألوا ا أن يزيل الجبـال لأزالها، ولو سألوه ألا يقيم القيامة لما أقامها ولكنهم يعلمـون مواضع رضاه، فلا يسألونه إلا ما يحب. وقـد فضـل ابـن تيمية، أن يكون هذا مكذوبا على التستري، لأن ما اخبـر ا أن يكون، فلا بد أن يكون[١٧٦].

وربما زين الشيطان لأحدهم عرشا في الهواء، فوقه نور، ويسمع من يخاطبه بقوله: أنا ربك. فمـن كـان مـن أهـل المعرفة حقا زجره واستعاذ با ، فيزول عنه.

إن المؤمن الحق، يعتقد دائما، أن ا تعالى، هو الخالق،

---

[176] ابن تيمية الحسنة والسيئة ١١٧ - ١١٨

وهو المدبر لكل الأشياء الطبيعية[177].كما يعتقد أنـه سـبحانه يرسل رسلا من آن لآخر إلى مختلف الأمم، لهـدايتهم وأن الإسلام خاتم الأديان وفي عهد النبي صلى ا عليه وسـلم، ظهر عبد ا بن صياد، الذي ظـن بعـض الصـحابة أنـه الدجال. وقد توقف النبي في أمره، حتى تبين له فيما بعد، أنه من جنس الكهان.

أما الأسود العنسي مدعي النبوة، فقد كان له شيطان يخبره ببعض المغيبات. لكن هذا الشيطان لم ينفعـه وقـت قتـال المسلمين له. ولما تبين لامرأته أنه كافر، أعانت المسـلمين على قتله. وكذلك كان مسيلمة الكذاب.

وهناك بعض المتصوفة الذين لا يصلون. ومـنهم مـن يتكلم في صلاته بدعاء لغير ا مثل: "يا سيدي أحمد شـيء ". ويظن بعضهم أن النبي صلى ا عليه وسلم. يخرج من قبره فيكلمه.

وكان ابن منده، إذا أشكل عليه حديث، يأتي إلى الحجرة النبوية ويسأل النبي عنه، وقد ادعى هو وأصحابه، أن النبي

---

[177] P 14،Dr. IQbal: The way The Muslim

كان يجيبه، مع أن الصحابة تنازعوا بعده صلى ا عليه وسلم في أمور فلم يسألوه، مع أنهم كانوا أحسن حالا من ذلك الصوفي.

إن السكر وجد بلا تمييز، كما يقول ابن تيمية. ولذا قد يحصل لبعض ذوي الأحوال في حال الفناء القاصر، أن يقول مثلا: "سبحاني" أو يقول "ما في الجبة إلا ا ". ويعلق ابن تيمية على هذا بقوله:

"وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدى، إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهي عنه [١٧٨]".

وكان بعض ملاحدة الصوفية، يرى أن الحلاج، لم يتحقق تماما بالحلول، فلم ترفع له آنية بالمعنى، لكن رفعت له بالصورة، ولهذا قالوا: "إن الحلاج نصف رجل [١٧٩]".

ولقد كان الحلاج صاحب أحوال شيطانية، وله خزعبلات، تسببت واحدة منها في قتله. فقد ذهب إلى أن من فاته الحج، يجوز له أن يبني في داره بيتا ويطوف به، كما

---

[178] ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٦٨

[179] المصدر السابق ١: ٨٢

يتطوف بالبيت، ويتصدق على ثلاثين يتيما بصـدقة، فهـذا يجزئه عن الحج. ويقول ابن تيمية عن الحلاج بصفة عامة:

"كان صاحب خزعبلات بهتانية، وأحوال شيطانية، ولهذا إنما يعظمه من يعظم الأحوال الشيطانية والنفسانية والبهتانية. وأما أولياء ا العالمون بحال الحلاج فلـيس مـنهم واحـد يعظمه، ولهذا لم يذكره القشيري في مشايخ رسالته، وإن كان قد ذكر من كلامه كلمات استحسنها"[180].

والحق أن من يقرأ آثار الحلاج، ويعرضها على الكتـاب والسنة، لا يملك أن يحكم على الحلاج بأقل مما حكم عليه به ابن تيمية.

فالحلاج يصرح بوحدة الأديان، وصحة اعتقاد أهل كـل دين، وأن من حكم ببطلان اعتقاد إنسان، فقد حكم على نفسه ببطلان عقيدته أيضا فهو يقول:

"الأديان كلها عز وجل، شغل بكل ديـن طائفـة، لا اختيارا منهم بل اختيارا عليهم، فمن لام أحد ببطلان ما هـو عليه، فقد حكم أنه اختار ذاك لنفسه، وهذا مذهب القدريـة -

180 ابن تيمية: جامع الرسائل ١: ١٩١

والقدرية مجوس هذه الأمة – وأعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان، هي ألقاب مختلفـة وأسـام متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف "[١٨١].

ومن شعر الحلاج الذي تبدو فيه وحدة الوجـود المنكـرة شرعا قوله:

سبحان من أظهر ناسوته	**سر سنا لاهوته الثاقب**
ثم بدا فيخلقه ظاهــرا	**في صورة الآكل والشارب**
حتى لقد عاينه خلقُـه	**كلحظة الحاجب بالحاجب**[١٨٢].

٣- أمثلة من كرامات الصحابة

إن الولاية الحق، منذ ظهور الإسلام متعلقـة باعتنـاق الإسلام نفسه، قال تعالى: ﴿ **ومن يبتَغ غَير الإِسلاَمِ دِينًا فَلَن يقْبلَ مِنْه**﴾ آل عمران ٨٥.

والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبـة والقـرب. والولي من الولي، وهو القرب. وأيضا سمي وليا لموالاتـه

---

[181] علي بن أنجب الساعي (ت ٦٧٤ هـ): أخبار الحلاج ص ٥٤ط ١٩٧٠ مكتبة الجندي بالقاهرة.

[182] ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩٧.

للطاعات، أي متابعته لها. وبالرغم من تفضيل ابـن تيميـة للمعنى الأول[١٨٣]، فإنه ليس هناك ما يمنع من الجمع بينهما.

وقد ورد لفظ "الولي" في حديث صحيح رواه البخـاري، وهو: "من عادى لي وليا..." ويندرج تحت مفهوم الولي كـل من: أصحاب اليمين، والمقربون السابقون. فكل من أظهـر الولاية، دون أداء الفرائض واجتناب المحارم، فليس وليا بأي حال:

"وأولياء ا المتقون، هم الـذين فعلـوا المـأمور، وتركـوا المحظور، وصبروا على المقدور، فأحبهم وأحبوه، ورضي عنهم، ورضوا عنه [١٨٤]".

وقد امتدح ابن تيمية ثلاثة أنواع من كتاب التصوف:

الأول – كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل رضي ا عنه تعالى عنه.

والثاني – طبقات الصوفية للسلمي، ورسالة القشيري.

---

[183] الفرقان ٧.

[184] المصدر السابق ١٣٥

والثالث – الحلية لأبي نعيم[185].

ولعل امتداح ابن تيمية لهذه الكتب، راجع إلى أنها تسير على منهج شرعي، يحقق الهدف الأسـمى مـن الزهـد أو الولاية وهو إخلاص العبادة تعالى، بمتابعة الكتاب والسنة.

هذا وإن واجب المؤمن، أن يؤمن بالكتاب كله، ولا يلـين قلبه لاتباع بعض أمور السنة، والنفور عن بعضها الآخـر. وكان من نتيجة إقتداء المسلمين بهذا المنهج، أن وجد فـيهم أولياء حقا، في مشارق الأرض ومغاربهـا، مـن السـابقين واللاحقين، وكانوا كذلك قائمين بحفظ العلم المـوروث عـن رسول ا صلى ا عليه وسلم. ومن يفعل هذا، يصبح مـن أعظم أولياء ا المتقين وحزبه الصالحين ﴿ **يرفَعِ ا ُ الذِين آمنُوا مِنْكُم والذِين أُوتُوا الْعِلْم درجاتٍ**﴾.

ومن المتفق عليه بين أهل السنة، التصـديق بكرامـات الأولياء، وبما يجري ا تعالى على أيديهم، مـن خـوارق العادات، في العلوم والمكاشفات والتأثيرات.

وهم في هذا بعكس المعتزلة، الذين أنكروا كرامة الولي،

---

[185] ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية ١: ٢٦٢ - ٢٦٣

بحجة أن الخوارق لا تكون إلا للأنبياء. وقد فاتهم أن يعلموا السبب الحقيقي لحدوث الخوارق للأولياء، وهـو متـابعتهم الرسول صلى ا عليه وسلم.

كذلك فإن خوارق الأنبياء والأولياء، إنما تعين صـاحبها على البر والتقوى. وهذا بخلاف من تعينه الجن على قضاء بعض الحوائج، أو ارتكاب المحرمات: ﴿**تِلْكَ الـدار الآخِـرةُ نَجعلُها لِلذِين لاَ يرِيدون علُوا فِي الأَرضِ ولاَ فَسادا والْعاقِبةُ لِلْمتقِين**﴾. القصص ٨٣.

هذا وإن شهادة النبي صلى ا عليه وسلم، لهي دليل كاف لمن شهد له. فمن شهد له بالولاية كان وليا، ومن شهد عليه بعدم الولاية، ثم ادعاها، كان من أولياء الشيطان.

ولا يمكن أن نتصور شهادة بالولاية، من النبي صلى ا عليه وسلم لأي إنسان، إلا إذا كان هذا الشخص، قـد أمـر السنة على نفسه قولا وفعلا، لقوله تعـالى، ﴿ **وإِن تُطِيعـوه تَهتَدوا** ﴾. النور ٥٤.

ومن الجدير بالذكر، أن الصحابة – برغم ولايتهم – لـم يكن من أخلاقهم، أن يتهافتوا على ظهور خوارق الكرامـات على أيديهم، حيث إنهم كانوا مستغنين بما رأوه مـن حـال

الرسول صلى ا   عليه وسلم. وهذه نقطة فـرق فـي هـذا المجال، بينهم- رضوان ا   عليهم- وبين من جـاءوا مـن بعدهم.

ويجب أن يعلم، أن عدم الخوارق، لا يضر المسلم الحـق في دينه لأن ذلك ليس هدفا مقصودا له: "فمن لم ينشكف لـه شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء مـن الكونيـات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند ا   بل قد يكون ذلك أنفع له فـي دينه، إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأمورا به أمر إيجـاب ولا استحباب[١٨٦].

وتكون الكرامات بحسب حاجة الرجل، ذلك أن ضـعيف الإيمان قد يأتيه منها ما يقوي إيمانه، ويسد حاجته. وبعكـس هذا يكون قوي الإيمان، لعلو درجته، لا لنقص ولايته. وهذا يفسر لنا كثرة حصول الكرامات في التـابعين أكثـر مـن حصولها لدى الصحابة.

ومن واجب السالك لطريق الزهد، أن يسلك بعلم سـليم، يوافق الشريعة، وإلا ضل عن سواء السبيل. ومثله في هـذا

---

[186] مجموعة الرسائل والمسائل ٥: ٩

من يسلك طريق الفقه والعلم.

ويرى الشيخ ابن تيمية، أنه لا بأس من اعتزال الناس في فضول المباحات، وفيما لا ينفع، وذلك يكون بالزهـد فيـه. وكذلك لا بأس من الخلوة لمن أراد تحقيق علم أو عمل، مـع المحافظة على الجمعة والجماعة. وقد طبق ابن تيمية علـى نفسه منذ شبابه، منهج الزهد في المعاملة والملبس والمأكل.

وقد أشار ابن تيمية، إلى فريقين في الإسلام، لم يلتزم كل منهما المنهج السوي. فهناك بعض المتفقهة، الذين تنحصـر هممهم في طهارة البدن فقط، بـل ويزيـدون فيهـا علـى المشروع، مع إهمال طهارة القلب.

وعلى العكس من هؤلاء نجد بعض المتصـوفة، الـذين تنحصر هممهم في طهارة القلب، مـع التزيـد فيهـا علـى المشـروع، ثـم هـم يتركـون مـن طهـارة البـدن، ما أمر ا به إيجابا أو استحبابا[١٨٧].

وقد اشترط كثير من الفقهاء "سـلامة العاقبـة" للـولي، بمعني أن ولي ا تعالى لا يصير عدوا تعالى. ذلـك أن

---

[187] مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ١: ١٥

علم ا القديم الأزلي لا يتغير. فمن علم ا منه أنه يـوافي حين موته بالإيمان والتقوى، فقد تعلقت به محبة ا وولايته ورضاه. وربما كان رضاء الناس عن سلوكه علامـة مـن علامات رضاء ا تعالى.

وقد روى التاريخ بعض كرامـات الصـالحين، وفـي مقدمتهم صحابة رسول ا صلى ا عليه وسلم.

فقد ذهب الصديق أبو بكر رضي ا تعالى عنه، بثلاثـة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها ثم ظل الطعام كما هو. وجاء أقوام آخرون فأكلوا منه حتى شبعوا[١٨٨].

أما عمر بن الخطاب رضي ا تعالى عنه، فإنـه كـان "محدثا" يأخذ عن قلبه أشياء دون عصمة، ولهذا كان يعرض أعماله على ما جاء به الرسول صلى ا عليه وسـلم، كمـا كان يشاور الصحابة ويناظرهم.

وكان عمر لا ينكر الكشف الروحي، ويقول: "اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلـي لهـم

---

[188] الفرقان ١٤٢

أمور صادقة[189]".

ولما أرسل عمر جيشا أمر عليهم رجلا يسمي "سارية" فبينما عمر يخطب، جعل يصيح على المنبر: يا سارية! الجبل، وكررها. فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين! لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية! الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم ا تعالى [190].

ويقول ابن تيمية مثبتا للكشف الروحي: "فقد ثبت أن لأولياء ا مخاطبات ومكاشفات. وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر: عمر بن الخطاب، رضي ا تعالى عنهما، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر [191]".

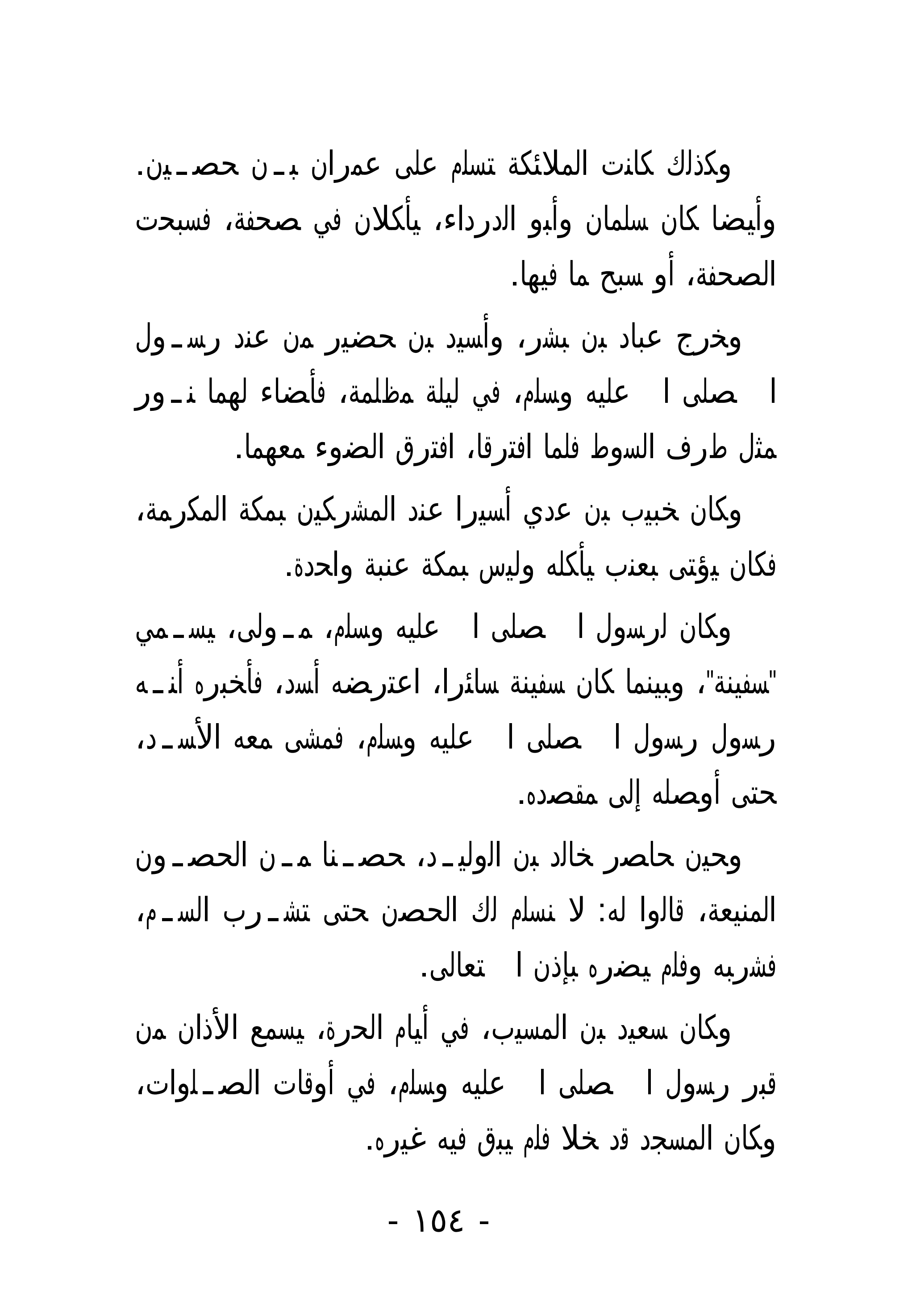
ويروي ابن تيمية، بعض صور الكشف لدى الصحابة والتابعين منها: ما كان من أسيد بن حضير، إذ كان يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظلة، فيها أمثال السرج، وهي الملائكة، إذ نزلت لقراءته.

---

189 المصدر السابق ٥٨

190 المصدر السابق ١٤٤

191 المصدر السابق ٥٨



وكذلك كانت الملائكة تسلم على عمران بـن حصـين.
وأيضا كان سلمان وأبو الدرداء، يأكلان في صحفة، فسبحت الصحفة، أو سبح ما فيها.

وخرج عباد بن بشر، وأسيد بن حضير من عند رسـول ا صلى ا عليه وسلم، في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نـور مثل طرف السوط فلما افترقا، افترق الضوء معهما.

وكان خبيب بن عدي أسيرا عند المشركين بمكة المكرمة، فكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة واحدة.

وكان لرسول ا صلى ا عليه وسلم، مـولى، يسـمي "سفينة"، وبينما كان سفينة سائرا، اعترضه أسد، فأخبره أنـه رسول رسول ا صلى ا عليه وسلم، فمشى معه الأسـد، حتى أوصله إلى مقصده.

وحين حاصر خالد بن الوليـد، حصـنا مـن الحصـون المنيعة، قالوا له: لا نسلم لك الحصن حتى تشـرب السـم، فشربه وفلم يضره بإذن ا تعالى.

وكان سعيد بن المسيب، في أيام الحرة، يسمع الأذان من قبر رسول ا صلى ا عليه وسلم، في أوقات الصـلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق فيه غيره.

وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي، يوما في شدة الحر، فأظلته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه، لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو، أن يخدمهم بنفسه.

ولما مات الأحنف بن قيس، وقعت قلنسوة رجل في قبره، فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر.

وكان عبد الواحد بن زيد، قد أصابه الفالج، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء. فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه، ثم تعود إلى ما كانت عليه بعد ذلك.

وقد سأل عتبة الغلام ربه ثلاث خصال: صوتا حسنا، ودمعا غزيرا، وطعاما من غير تكلاف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه منهمرة. وكان يأوي إلى منزله، فيصيب فيه قوته، وهو لا يدري من أين يأتيه [192].

وصدق ا تعالى: ﴿ **يرفَعِ ا ُ الذِين آمنُوا مِنْكُم والذِين أُوتُوا الْعِلْم درجاتٍ**﴾ المجادلة ١١.

وقد حكي محمد إقبال، كرامة لمالك بن دينار، خلاصتها:

---

[192] الفرقان ١٤١ - ١٤٨

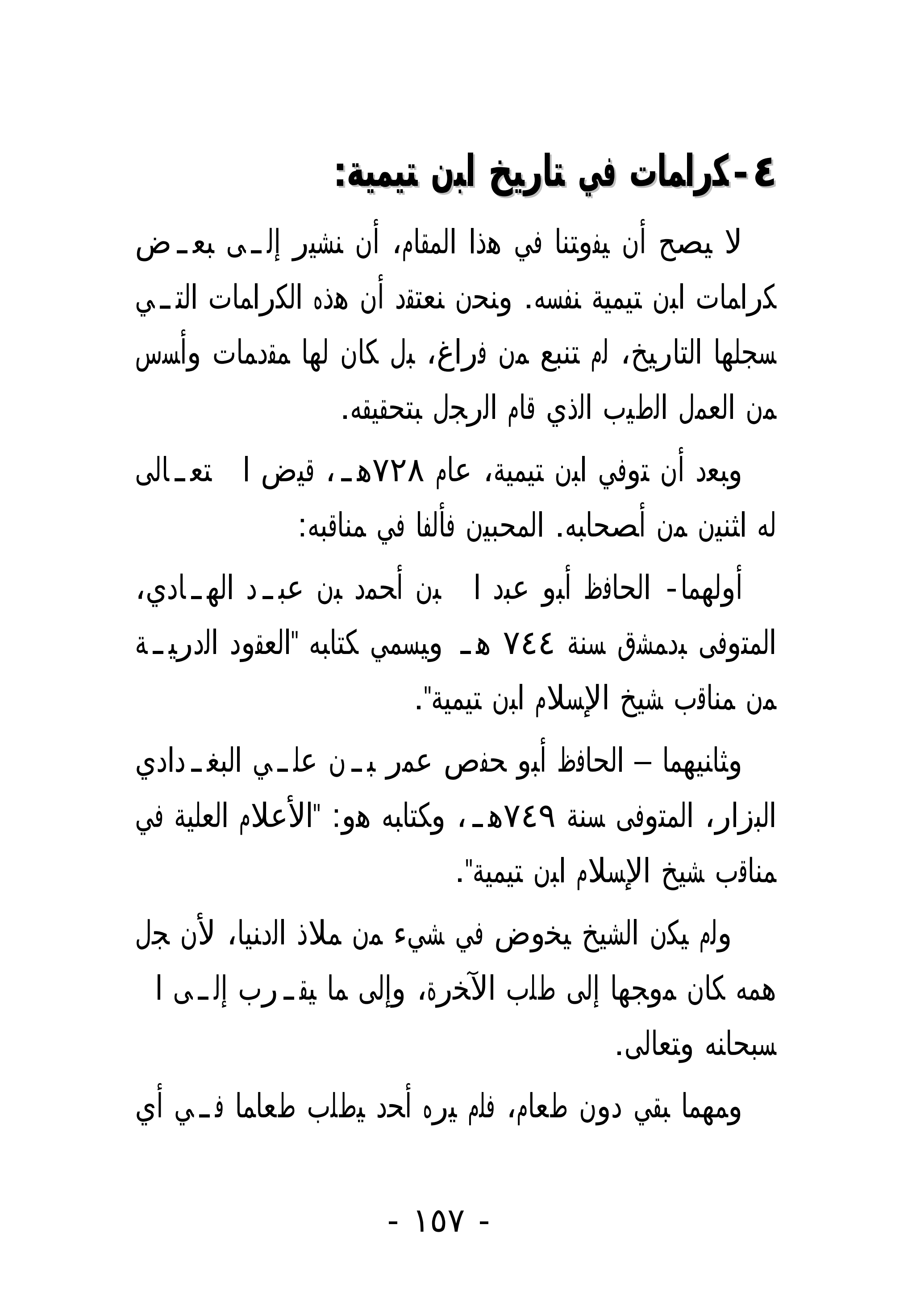
أن مالكا كان مسافرا بالبحر في قارب. ولم يكن معه سـوى دينار واحد من الأجرة. وحين بدأ صاحب القارب يضـربه، ثم هم بإلقائه في الماء فوجئ بعدة سمكات، تحمل كل منهـا دينارا في فمها. فأخذ مالك منها دينارا – تأمل - ولم يأخـذ الباقي – وأعطاه لصاحب القارب، الذي لم يلبث أن سقط من الذهول عند قدمي مالك. ثم مشى مالك على المـاء، حتـى وصل شاطئ النهر [١٩٣].

---

[193] Dr. Iqbal. M The way of the Muslim،. PP. 47 – 8

ونحن نورد هنا بالنص كلام إقبال:

It is Said that Malik bin Dinar was once traveling by boat، but Found he had not the Price of the fare، one diner. The owner of the boat began to beat him. He was about to throw him overboard، whin several Fish، each holding a dinar in its mouth، came out of the water Malik took one of the coins and gave it to the boatman who Fell astounded at Malik's Feet. Malik then stepped on to the water and walked away over the river'.



٤-كرامات في تاريخ ابن تيمية:

لا يصح أن يفوتنا في هذا المقام، أن نشير إلى بعض كرامات ابن تيمية نفسه. ونحن نعتقد أن هذه الكرامات التي سجلها التاريخ، لم تنبع من فراغ، بل كان لها مقدمات وأسس من العمل الطيب الذي قام الرجل بتحقيقه.

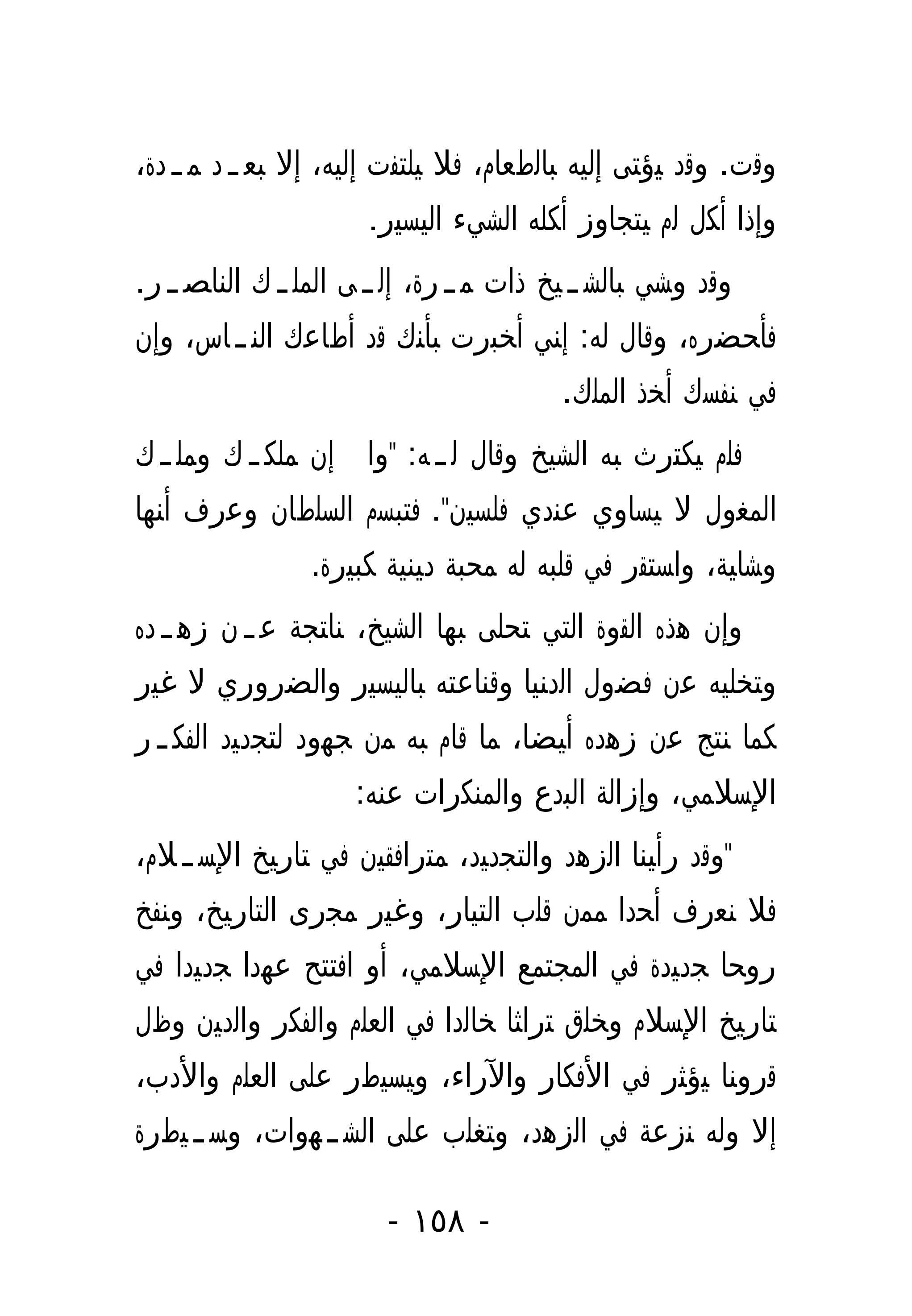
وبعد أن توفي ابن تيمية، عام ٧٢٨هـ، قيض الله تعالى له اثنين من أصحابه. المحبين فألفا في مناقبه:

أولهما- الحافظ أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي، المتوفى بدمشق سنة ٧٤٤ هـ ويسمي كتابه "العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية".

وثانيهما – الحافظ أبو حفص عمر بن علي البغدادي البزار، المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وكتابه هو: "الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية".

ولم يكن الشيخ يخوض في شيء من ملاذ الدنيا، لأن جل همه كان موجها إلى طلب الآخرة، وإلى ما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

ومهما بقي دون طعام، فلم يره أحد يطلب طعاما في أي



وقت. وقد يؤتى إليه بالطعام، فلا يلتفت إليه، إلا بعد مدة، وإذا أكل لم يتجاوز أكله الشيء اليسير.

وقد وشي بالشيخ ذات مرة، إلى الملك الناصر. فأحضره، وقال له: إني أخبرت بأنك قد أطاعك الناس، وإن في نفسك أخذ الملك.

فلم يكترث به الشيخ وقال له: "وا إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين". فتبسم السلطان وعرف أنها وشاية، واستقر في قلبه له محبة دينية كبيرة.

وإن هذه القوة التي تحلى بها الشيخ، ناتجة عن زهده وتخليه عن فضول الدنيا وقناعته باليسير والضروري لا غير كما نتج عن زهده أيضا، ما قام به من جهود لتجديد الفكر الإسلامي، وإزالة البدع والمنكرات عنه:

"وقد رأينا الزهد والتجديد، مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحدا ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحا جديدة في المجتمع الإسلامي، أو افتتح عهدا جديدا في تاريخ الإسلام وخلق تراثا خالدا في العلم والفكر والدين وظل قرونا يؤثر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطرة

على المادة ورجالها[١٩٤]".

ومن المعلوم عنه، أن عناية ا تعالى، قد أحاطت به منذ صغره، فقد رفض أن يأخذ أربعين درهما كل شـهر، كـان والده أعطاها لشيخه الذي يحفظه القرآن كي يشجع التلميـذ فرفض التلميذ أن يأخذ على حفظ القرآن أجرا.

وكانت حياة ابن تيمية تشير إلى أنه كـان يـنعم بحيـاة التقشف والزهد. وكان لهذا نتائج عظيمـة، منهـا رفضـه الصريح لأية خلعة سلطانية، أو أي رغبة دنيوية.

وهو بالرغم من تجبره على الطغاة، وعدم مهادنته لهـم، فإنه في النهاية قد عفا عن جميع مـن عارضـوه، أو مـن حاولوا إيقاع الأذى به، وأعلن فور خروجه من السجن، أنـه لا مؤاخذة ولا عتاب على أحد. ويقول معاصره البزار عـن بعض مظاهر الزهد عند الشيخ:

"لم يسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه، بل كان أهلـه

---

[194] أبو الحسن الندوي: الإمام الممتحن أحمد بن حنبل ص ٢٩ ط ٢ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م المختار الإسلامي. القاهرة.

يأتون بلباسه وقت علمهم باحتياجه إلى بدل ثيابه التـي هـي عليه. وربما بقيت عليه مدة حتى تتسخ ولا يـأمر بغسـلها، حتى يكون أهله هم الذين يسألونه ذلك[١٩٥]".

وقد زهد الشيخ في العقار والمال والثياب والرئاسة. كمـا أنه قد اهتم بتحقيق مقام الورع لنفسه، لأنه يعلم أن العلمـاء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم:

"إنه ما خالط الناس في بيع ولا شـراء ولا معاملـة ولا تجارة ولا مشاركة، ولا زراعة ولا عمارة. ولا كان نـاظرا مباشرا لمال وقف.

ولم يكن يقبل جراية ولا صـلة ولا درهمـا ولا متاعـا ولا طعاما، وإنما كانت بضاعته مدة حياته، وميراثه بعد وفاته - رضي ا عنه – العلم [١٩٦]".

لقد بلغ من زهد الرجل، أنه لو سئل عامي يعيش بعيـدا، عن أزهد الناس في عصره، لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية.

---

[195] المصدر السابق ٥٢

[196] المصدر السابق ٤١.

ولما نزل المغول بالشام، فزع النـاس، وسـألوا الشـيخ الدعاء، فدعا ا تعالى، ثم بشرهم بالنصر في يـوم معـين، وأنهم سوف يرون الرءوس معبأة بعضها فوق بعض، فكـان الأمر مثلما قال. ومن الطبيعي أنه كـان صـاحب حـدس صادق، فنظر في المقدمات، ورأى أنها لا بد أن تؤدي إلـى نتائجها، كما أنه كان صاحب شفافية روحية، أكرم بها مـن عند ا تعالى.

ويحكي الشيخ عبد ا بن أحمد بن سعيد، أنه مرض يوما بدمشق مرضا شديدا، وقد منعه المرض من كل شيء، حتى من الجلوس. ثم خفف ا تعالى عنه، بسبب دعاء الشيخ ابن تيمية له، ويقول هذا الرجل:

"فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي، وأنا مثقـل بـالحمى والمرض. فدعا لي وقال: "جاءت العافية" فمـا هـو إلا أن فارقني، وجاءت العافية، وشفيت من وقتي[١٩٧].

ويحكى أن أحد القضاة، عين في مصر. فعزم على الحكم بقتل رجل عالم صالح فور وصوله إليها. وقد فزع الناس من

---

[197] المصدر السابق ٥٥.

هذا الخبر، فقال لهم ابن تيمية: "إن الله لا يمكنه مما قصد، ولا يصل إلى مصر حيا". وفعلا أدرك الموت القاضي، وكان بينه وبين مصر قدر يسير.

وكان الشيخ يعود المرضي بالبيمارستان بدمشق، فلما وصل إلى شاب منهم، دعا له بالشفاء، فشفي سريعا، وجاء يسلم على الشيخ فهش له، وأعطاه نفقة وقال له:

"قد شفاك الله، فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك، أيجوز أن تترك زوجتك وبنات لك أربعا بلا نفقة، وتقيم ها هنا [١٩٨]!" فتعجب الفتى مما كاشفه به، لأن ذلك كان حقًا، فتاب على يده.

وأخبر الشيخ ابن عماد الدين المقرئ، أنه قدم على الشيخ، ومعه نفقة، فأدناه منه، ولم يسأله عن النفقة. فلما نفدت النفقة، أراد أن يخرج من المجلس بعد الصلاة، فمنعه الشيخ. فلما خلا المجلس دفع إليه جملة دراهم، وقال له أنت الآن بلا نفقة. فعلم الرجل أن الله قد كاشف الشيخ بحاله.

كذلك يحكي الشيخ أحمد بن الحريمي، أنه سافر إلى

---

[198] المصدر السابق ٥٤٦ - ٧٥

دمشق، ولم يكن معه شيء من النفقة، فمشـى فـي زقـاق كالحائر، فإذا بشيخ يقبل نحوه مسرعا، فسلم عليه وهش فـي وجهه، وأعطاه صرة دراهم. فسأل عنه فعرف أنه ابن تيمية.

ولقد أثبت أصحاب الشيخ أن له كرامـات عديـدة، قـد لمسوها بأنفسهم. وكان أول دليل عليها، ما يصيب المعترض عليها:

"ومن أظهر كراماته، أنه ما سمع بأحد عاداه، أو غـض منه إلا وابتلي بعدة بلايا، غالبها في دينـه. وهـذا ظـاهر مشهور، لا يحتاج إلى شرح صفته[١٩٩]".

ويذكر عبد ا بن أحمد بن سعيد أنه كان يكتب لـبعض الشعراء شعرا فيه تنقص للشيخ ابن تيمية. ثم حوكم الشاعر، وشهر حاله بين الناس.

أما ابن سعيد نفسه، فقد وقع في أحـوال مـن الخـوف والمكروه، نظرا لاحتفاظه بهذا الشـعر، فأحرقـه وغسـله بالماء، واستغفر ا تعالى فصار بعد ذلك في خير وعافية.

ويحكي البزار، أن ا سبحانه وتعالى، كان يلهم الشـيخ

---

199 البزار: الأعلام العلية ٥٨

بما يجول في ذهن جليسه من أسئلة، فيجيب عليهـا دون أن يتكلم الجليس فيقول:

"كنت في خلال الأيام التي صحبته فيها، إذا بحث مسالة، يحضر لي إيراد، فما يستقيم خاطري به، حتى يشرع فيورده ويذكر الجواب من عدة وجوه[٢٠٠]".

كذلك يحكي البزار صاحب الشيخ، أنه جرت بينه وبـين بعض العلماء منازعة في مسائل، فاتفق الطرفان على تحكيم ابن تيمية. فلما حضر أخذ يحدثهما بكل المسائل التي حـدث حولها خلاف، ثم رجح ما رأى ترجيحه بالدليل القاطع.

ويحدثنا الشيخ زين الدين الواسطي، أنه أقـام بحضـرة الشيخ مدة طويلة، فكان قوتهما نصف رطل خبزا، يكسـره الشيخ بيده لقما، فيأكلان دون أن ينتهي الخبز، ولا يحتاجـان إلا إلى طعام يسير بالليل.

وكان أخو الشيخ ملازما له، ويهابه كما يهاب السـلطان فتعجب الناس، لأن أهل الرجل ينبسطون معه، فقال لهم:

"إني أرى منه أشياء، لا يراها غيري، أوجبت أن أكـون

---

[200] المصدر السابق ٥٣ - ٥٤

معه ما ترون "[٢٠١].

وكان يسأل عن هذه الأشياء، فلا يصرح بأي أمـر، لمـا يعلم من عدم إيثار الشيخ للتصريح بأي أمر من هذه الأمور.

ولم يستطع أعداء الشيخ، أن ينالوا منه شيئًا، بالرغم مـن محاولاتهم المتكررة للإيقاع به. وقد جعل ا سبحانه وتعالى، حبس الشيخ فضيلة وزينة. كما كتب ا سبحانه وتعالى لكتبه ورسائله أن تذيع في الآفاق.

---

[201] المصدر السابق ٥٢.

القسم الثالث

رأي ابن تيمية في العقل

١ - تمهيد:

لقد ترك ابن تيمية، دنيا مليئة بالدرس والاجتهـاد، حتـى أصبحت هي أيضا جديرة بالدرس والفحص والتفكير في كل جوانبها.

وقد تشدد خصومه عليه في كل شيء حتى وصل بهـم الأمر إلى طعنه في عقيدته، دون دليل. لكن كتب لأفكاره أن تظل راجحة على أفكار خصومه، حيث إنه كان:

"قويا في تفكيره، وفي جدله، بما راض عقله على العلـوم التعليمية، من الحساب والجبر والمقابلة والفرائض، والعلـوم العقلية، من الفلسفة والكلام، وأصول الفقه [(٢٠٢)]".

وإن ا سبحانه وتعالى، قد رزق ابن تيمية، سعة التفكير وجودته، وفهم الإسلام على حقيقته، مما دعا بعض الدارسين إلى وضعه بين رجال الفكر الإسلامي فـي القـرن الثالـث الهجري، لما قام به من دعوة جريئة مخلصة للعـودة إلـى

[(202)] مصطفي عبد الرازق: خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ص ١٢١ دار الكاتب العربي.

أصول الدين الصحيح [٢٠٣].

وحيث كان اجتهاد ابن تيمية، نابعا من ثقافته، فـإن هـذه الثقافة لها ما يميزها:

"والذي يميز ثقافة ابن تيمية، أنها ثقافة إسلامية عميقـة بالدرجة الأولى، وأنه يتبع فيها منهج أهل السنة والجماعـة، اتباعا دقيقا، وخاصة منهج الإمام أحمد بن حنبـل، وكبـار علماء الحنابلة. وإن كان يأخذ عن كافـة علمـاء المـذاهب الأربعة، وعن كبار المحـدثين مثـل البخـاري والشـافعي والطبري... بل إن ابن تيمية يسـتفيد مـن كـل المفكـرين والنظار فيما كان فيه من التأييد والتدعيم لمذهب أهل السـنة والجماعة.

وهو يعترف لكل فئة، أو لكل عالم، بما فيه مـن خيـر، كما يبين ما هو عليه من باطل [٢٠٤]".

---

(203) د. صلاح الدين المنجد: ص ٣، ٤ من مقدمته لتحقيق كتاب ابن قيم الجوزية: أسماء مؤلفات ابن تيمية – ١٩٧٦ دار الكتاب الجديد – بيروت.

(204) د. محمد رشاد سالم: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ٢٣-٢٤ الدار السلفية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

وهكذا كان ابن تيمية، يستفيد من كل الآراء الرشيدة. لكن استفادته لم تكن عشوائية، بل كانت منظمة، لها طابعها، ولها خطتها ومنهجها. وقد ظهر كل ذلك في إنتاجه العلمي.

إنه بالرغم من سعة اطلاع ابن تيمية، فقد كانت ثقافته الفلسفية غير واضحة المعالم. لكن لا يخلو الأمر، من أن لهذه الثقافة بعض التأثير في فكر الرجل. وهذا واضح في قدرته على استيعاب المذاهب الفلسفية والكلامية، مما مكنه من الرد عليها. من أمثلة ذلك رده على أرسطو وابن سينا وغيرهما.

كذلك فإن العمق الفكري والتنظيم المنطقي، يبدوان واضحين في مؤلفاته العديدة. وذلك في جودة الترتيب والتقسيم.

٢- اهتمامه بالعقل في تأليفه:

إن ابن تيمية، لم يهمل شأن العقل، بالرغم من تمسكه بنصوص الدين. ذلك أنه مؤلف، ولا يتصور أن يكون شخص ما مؤلفا حقيقة، إلا باستخدامه العقل.

وقد تبين لنا من حصر مؤلفات ابن تيمية، حسبما أوردها تلميذه ابن قيم الجوزية، أن الأستاذ له ٣٧١ (ثلاثمائة وواحد وسبعون) **مؤلفا على النحو التالي:**

٩٢ تفسير، ٢٠ أصول، ١٤٥ قواعد وفتاوى، ٥٥ فقه، ٣ وصايا، ٤ إجازات، ٢٢ رسائل تتضمن علوما.

ومن المؤكد أن هذا العد والإحصاء، قد تغير الآن، لكـن الذي يهمنا هنا، هو أن نورد بعض أسماء كتب ابن تيميـة، التي يتجلى فيها مدى عنايته بالعقل، ومنها ما ورد في رسالة ابن القيم هذه:

ص ١٠ رسالة في تفسير قوله تعـالى مـن سـورة آل عمران: ﴿**وما يعلم تأويله إلا ا ُ** ﴾[٢٠٥]" نحو مجلد.

ص ١٣ رسالة في تفسير قوله تعالى من سورة النحل: ﴿ **إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون**﴾ [٢٠٦]" و﴿ **لآياتٍ لقومٍ يعقلون**﴾ [٢٠٧]".

ص ١٩ كتاب درء تعـارض العقـل والنقـل – أربـع مجلدات.

ص ١٩ كتاب الرد على المنطقيين. مجلد كبير.

---

(205) آل عمران ٧.

(206) النحل

[207] النحل ١٢.

ص ٢٠ جواب في تعليل مسألة الأفعال. نحو ستين ورقة.

ص٢٠ كتاب إبطال قول الفلاسفة بقدم العالم. مجلد كبير.

ص ٢١ قاعدة في أن مخالفة الرسـول عليـه الصـلاة والسلام، لا تكون إلا عن ظن واتباع هوى.

ص٢١ قاعدة في أن كل دليل عقلي يحتج به مبتدع، فيـه دليل على بطلان قوله. نحو مائة ورقة.

ص ٢٨ قاعدة من الاجتهاد والتقليد.

٣-مفهوم العقل عند اليونان والمسلمين:

وبمناسبة الحديث عن العقل عند ابن تيمية، فإننـا نجـد منهجه الحاسم في مثل هذه الأمور، هـو البـدء بالتفسـير اللغوي، كي يتمكن من الفصل بين مفهوم اللفظ في الإسلام، وبين مفهومه لدى الفلاسفة.

فهو يرى أن: "العقل في لغة المسلمين: مصدر عقل يعقل عقلا"، وفيه معنى المنع والتقيد والتريث. وقـد وردت هـذه المادة في كتاب ا العزيز مثل: ﴿ **لو كُنا نَسمع أَو نَعقِلُ ما كُنا فِي أَصحابِ السعِيرِ**﴾ تبارك ١٠.

﴿ **إِن فِي ذَلِك لَآياتٍ لقَومٍ يعقِلُون** ﴾ الرعد ٤.

﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ الحج ٤٦.

ويرى ابن تيمية كذلك، أنه قد يراد بالعقل: "الغريزة التي جعلها ا تعالى في الإنسان، يعقل بها" وهنا لا يفرق بين معنى العقل في اللغة العربية وبين معناه لدى فلاسفة اليونان، فيقول:

"أما أولئك – فلاسفة اليونان- فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه، كالعاقل. وليس هذا مطابقا للغة الرسل والقرآن. وعالم الخلق عندهم، كما يذكره أبو حامد – الغزالي - : عالم الأجسام. أما العقول والنفوس، فيسميها عالم الأمر. وقد يسمي العقل: عالم الجبروت، والنفوس: عالم الملكوت، والأجسام: عالم الملك".

ثم ينفي ابن تيمية بشدة، أن يكون في اللغة العربية وفي تعاليم الإسلام، ما يشير إلى مخلوق مستقل بنفسه اسمه "العقل"، فيقول:

"ويظن من لم يعرف لغة الرسل، ولم يعرف معنى الكتاب والسنة، وأن ما في الكتاب والسنة، من ذكر الملك

والملكوت والجبروت، موافق لهذا، وليس الأمر كذلك [٢٠٨].

ومن المعلوم أن بعض فلاسفة اليونان مثـل أكسـانوفان وأنكساغوراس وأفلاطون وأفلوطين، قد قالوا بوجـود عقـل كلي كوني مستقل، بل زادوا أن جعلوه هو الإله [٢٠٩].ولـيس هذا مطابقا لأي دين سماوي. وقـد وصـف أحـد مـؤلفي الإسماعيلية، الرسل بالعقول فقال: كل منهم عقـل نـوراني، تعبدنا الله بطاعته أو اتباعه [٢١٠]".

وبذلك يتضح أن ابن تيمية، يحارب نظريـة الفـيض أو الصدور، تلك النظرية الغريبة عن تعاليم الإسلام، بل وعـن تعاليم جميع الأديان.

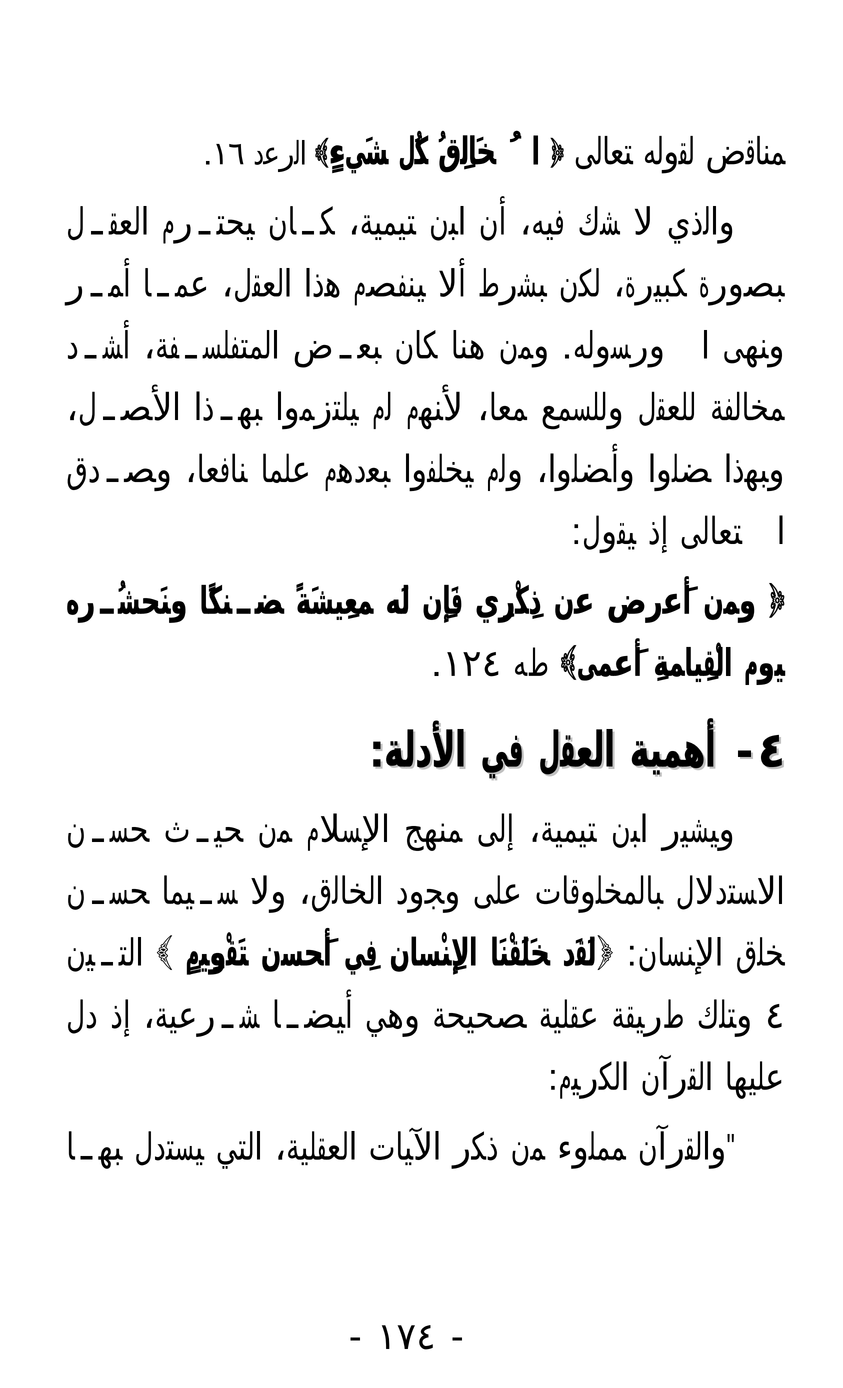
وقد تأثر الفارابي وابن سينا وغيرهما من فلاسفة الإسلام بهذه النظرية، التي تتضمن أن الله تعـالى قـد أعطـى العقـول أو الكواكب، القدرة على الخلق، وأن الله سبحانه – كما يزعم هؤلاء – لم يخلق إلا العقل الأول، ثم تسلسل الخلق عنه بعد ذلك. وهذا

---

(208) الفرقان ٨٨.

(209) مراد وهبة: المعجم الفلسفي – مادة " عقل " ط ٣.

(210) الكرماني (أحمد حميد الدين) : الأقوال الذهبية ص ٢٣٨ بتحقيقنا ط ١٩٧٨ مكتبة النهضة المصرية.



مناقض لقوله تعالى ﴿ ا ُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الرعد ١٦.

والذي لا شك فيه، أن ابن تيمية، كـان يحتـرم العقـل بصورة كبيرة، لكن بشرط ألا ينفصم هذا العقل، عمـا أمـر ونهى ا ورسوله. ومن هنا كان بعـض المتفلسـفة، أشـد مخالفة للعقل وللسمع معا، لأنهم لم يلتزموا بهـذا الأصـل، وبهذا ضلوا وأضلوا، ولم يخلفوا بعدهم علما نافعا، وصـدق ا تعالى إذ يقول:

﴿ **ومن أَعرض عن ذِكْرِي فَإِن لَه معِيشَةً ضـنكًا ونَحشُـره يوم الْقِيامةِ أَعمى**﴾ طه ١٢٤.

٤- أهمية العقل في الأدلة:

ويشير ابن تيمية، إلى منهج الإسلام من حيـث حسـن الاستدلال بالمخلوقات على وجود الخالق، ولا سـيما حسـن خلق الإنسان: ﴿**لَقَد خَلَقْنَا الإِنْسان فِي أَحسنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ التـين ٤ وتلك طريقة عقلية صحيحة وهي أيضـا شـرعية، إذ دل عليها القرآن الكريم:

"والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية، التي يستدل بهـا

العقل، وهي شرعية، لأن الشرع دل عليهـا "[211]. وبـذلك يكون الإحكام والإتقان في المخلوقات، مـن أعظـم الأدلـة العقلية، التي يجب ثبوت مدلولها.

وهكذا كان ابن تيمية، يعمل حساب التفكير العقلـي، دون تعصب أو تقليد. وهذا ما جعله موضع مدح:

"واحترام ابن تيمية لنظر العقل، هو الذي جعله يتسـامى عن التقليد، بحيث كان إذا أفتى، لم يلتزم بمذهب بعينه، بـل بما يقوم دليله عنده "[212].

فاشتراط الدليل عند الشيخ، إنما هو موقف عظيم في باب البرهان، ولذا كان لا يعتد بدليل، إلا إذا سلم من المعارضة. وهكذا شأن الإيمان إذا عمر قلب العالم، إذ ينـأى بـه عـن الادعاء والتعصب والمغالطة.

إن الدليل هو الذي يعطي الفارق بين العالم والجاهل، لأن الجاهل لا يستطيع إقامة الأدلة الصحيحة على مطالبه، كمـا أنه لا يستطيع مبارزة العلماء ببراهين عقلية، بحيث يسلم له

---

(211) ابن تيمية: النبوات ٤٨

(212) مصطفى عبد الرازق: خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ١٢١

المعارض.

ومن منهج ابن تيمية هنا، أن البرهان أو الدليل، إن استدل به كان دليلا، وكذلك إن اقترنت به الدعوة، وإلا فإنه لا يكون دليلا حقا. وعليه فإن الأساس في ذلك هـو حيويـة الـدليل ومرونته، وكذا حسن الاستفادة به في الموقف المناسب.

ويضيف ابن تيمية إلى هذا أنه لا دليـل دون ملازمـة المدلول، فهو يقول:

"إن الدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزما للمـدلول، متى وجد المدلول وإذن فإذا وجد تارة مع عدمه، فليس بدليل"[٢١٣].

فهو هنا يعطي علامة على الصحة التامة للـدليل، وهـي دورانه مع المدلول وجودا وعدما. وتلـك قاعـدة أصـولية منهجية.

ويضرب ابن تيمية مثالا لهذا من النبوة، فإن ما يدل عليها هو برهان عليها، فلا بد أن يكون مختصا بهـا، لا مشـتركًا بين الأنبياء وغيرهم، ومن هنا يـأتي الفـارق بـين النبـي

---

[213] النبوات ٥.

والمتنبئ، مبنيا على ظهور المعجزة:

"وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبئ، من جهة الـدليل، إذ لا دليل في قول كل أحد أثبت النبوة، علـى نبـوة الرسـل وصدقهم، إلا ظهور أعلام المعجزة على أيديهم [٢١٤]".

إن ما تواتر لدى الأنبياء، من تحريم الشرك قـد علمـه العقلاء بصريح العقل، فلا يمكن أن يتصور عاقل، أن نبيـا يجيز الشرك من قريب أو من بعيد، أو يجيز مظهـرا مـن مظاهر الشرك، مهما كان ضئيل القدر.

ويرى ابن تيمية، أن للعقل سموا خاصا، حيـث إنـه لا يتقيد بقصور الوهم والخيال، فقد يكون العقل تاما، مع قصور الخيال. بل إن من شأن الخيال دائما، أن يكون قاصرا.

فإذا كان الأدباء والعلمـاء، يـرون أن الخيـال مقدمـة ضرورية للأدب والعلم، ثم يستمر الأدب في الخيال، ويتقـدم العلم نحو القانون فليس عند ابن تيمية ممانعة لذلك، إذ هو لا ينفي الخيال، لكنه يحذر من جموحـه ونقصـه أو طغيانـه. ويبقى بعد للعقل النصيب الأوفى من الاعتدال والترفع.

---

(214) المصدر السابق ٣٤

إن المعرفة إذا توثقت وتأكدت، لا بد أن تنتهي إلى مقدمة ضرورية. ومن هنا نراه يربط بين الفطرة والعقـل، حيـث يقول:

"إن العلوم العقلية، تعلم بما فطر ا عليه بني آدم، مـن أسباب الإدراك، لا تقف على ميزان وضعي لشخص معـين"[٢١٥].

وهو في هذا يلمح إلى بطلان رأي الذين يدعون الكمـال للقياس الأرسطي، فمن الممكن تقدم العلم بدونه، بل إنه تقدم بالفعل، سالكا طريقا آخر.

٥- العقل مناط التكليف:

إن العقل السليم المنظم، يتيح لصاحبه مكاسب كثيرة، في مقدمتها كسب الوقت، بواسطة تنظيمه. فمن السعادة أن يقسم العاقل ساعات اليقظة كما يلي:

ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وثالثـة يخلو فيها بأصحابه، ليحدثوه عن عيوبه، ورابعة يخلو فيهـا

---

[215] الرد على المنطقيين ٢٦.

بالطيبات من الرزق، لتكون عونًا له على الساعات السـابقة [٢١٦]. ومن الواضح تأثر ابن تيمية هنا بالحـديث القدسـي: "على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة ينـاجي فيهـا ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمـه ومشربه [٢١٧]".

وإن مناط التكليف في الإنسان، هو العقل، لأن الإنسـان بدون العقل لا يساوي شيئا. ومن هذا يتضح أن العقل أعظم المنح الإلهية الكبرى، التي وهبها الخالق سبحانه لعباده مـن البشر.

وعلى المسلم، أن يفسح صدره لوجود ظاهرة الجنون في البشر، وأن يعتاد ذلك، مثلما اعتاد وجود العقـلاء. وعليـه أيضا ألا يحكم بوجود العقل أو الجنون لدى شخص مـا، إلا إذا حكم من خلال قوله أو فعله أو هما معا [٢١٨].

وإذا كان التكليف يتعلق بالعقل، فإن الجنون لا يتعلق به

---

[216] ابن تيمية: السياسة الشرعية ١٤٦ - ١٤٧

[217] عبد الرءوف الحدادي: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص ١٢٥ ط ٤ ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م مكتبة صبيح بمصر.

[218] النبوات ٢٠،

أي تكليف. وقد جاء في الحديث الشريف:

"يرفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيـق، وعـن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ" (أخرجه أبـو داود مع اختلاف يسير في اللفظ).

وهكذا فإن تكريم الخالق سـبحانه وتعـالى ورحمتـه، يحيطان بالإنسان في كل أحواله. فلو لم يكلف العاقل، لشـقي بذلك، ولو كلف المجنون لشقي العاقل والمجنون.

وهناك نتائج تترتب على فقدان العقل، سواء من الناحيـة الدينية أم الدنيوية، منها ما ذكره ابن تيمية حيث يقول:

"أما المجنون الذي رفع عنه القلم، فلا يصح شيء مـن عباداته، باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمـان ولا كفـر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات. بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا، كالتجارة والصناعة، فـلا يصـلح أن يكون بزازا ولا عطارا ولا حـدادا ولا نجـارا. ولا تصـح عقوده باتفاق العلماء، فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحـه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقوالـه. بل أقواله كلها لغو، لا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب".

وبالإضافة إلى هذا، فإن ابن تيمية، يرتب على ما سـبق نتيجة أخرى هامة، هي:

"إذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقـوى، ولا التقرب إلى ا بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون وليا ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي [٢١٩] سبحانه وتعالى.

ويعلم من هذا أن المجنون لا يعتد بعلمه، وأنه ليس مكلفا بسلوك طريق العلم، لأنه طريق العقل. أمـا العاقـل فعليـه مسئولية المعرفة، وله ثواب على ذلك. ففي الحديث الشريف:

"من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل ا به طريقا إلى الجنة". أخرجه الشيخان.

٦- العقل والاجتهاد:

ومن محاسن الإسلام، أن العاقل يثاب حسـب اجتهـاده، كما جاء في الحديث: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجـران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر". أخرجه الشيخان.

إن أجر المخطئ هنا ناتج عن إعماله عقله، حسب الطاقة

---

(219) ابن تيمية: الفرقان ٤٣.

البشرية وهذا من إعجاز الإسلام، إذ أنه يكرم المخطئ دون عمد، لأنه فكر بعقله. فأي قانون وضعي يضاهي هذه اللمحة النبوية الكريمة!

ومن المعروف أن القوانين الوضعية، التي تـدعي أنهـا كرمت العامل، تضع لائحة الجزاء قبل لائحة الثواب، وتهدر كرامة الإنسان، سواء أخطأ عامدا أم ناسيا. وكثيرا ما ينـتج عن إهدار كرامته، أن يخطئ دائما عن عمد.

ونظر لأن الاجتهاد في العلم، يجعل العلم البشري نسـبيا، فإن ابن تيمية يكره الادعاء في العلم، كما ينفي العصمة فيه.

ويحكى أن أبا حيان النحوي انقلب من مدح ابن تيمية إلى الذم فيه، لأنه لما جرى ذكر سيبويه بينهما، وقال أبو حيان: "ما رأت عيناي مثل هذا الرجل".

رد عليه ابن تيمية قائلا:

"ما كان سيبويه نبي النحو، ولا كان معصوما، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا، ماتفهمها أنت"[٢٢٠].

ولا ينبغي أن يفهم من هذا، أن ابن تيمية، يحط من شـأن

---

(220) خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ١١٦

الكتاب وقيمة صاحبه، فكفى المرء نبلا، أن تعد معايبه! لكن ابن تيمية يريد أن يخفف من غلواء أبي حيان، كي يتعلم عدم الإسراف في الحكم ولا سيما في أمور العلم.

ويهدف ابن تيمية من هذا، إلـى التفريـق بـين النبـوة ومعجزاتها، وبين علوم البشر، كيلا تخـتلط الأمـور، فهـو يقول:

"والمبرز في فن من الفنون، يقدر على ما لا يقدر عليـه أحد في زمنه. وليس هذا دليلا على النبوة. فكتـاب سـيبويه مثلا. مما لا يقدر على مثله عامة الخلق وليس بمعجز إذ كان ليس مختصا بالأنبياء، بل هو موجود لغيرهم، وكذلك طـب بقراط [٢٢١].

وهكذا لا يبدو من كلام ابن تيمية، أي حط من شأن كتاب سيبويه، ولا من شأن صاحبه، إذ يرى أنه ليس من السـهل على كل إنسان، أن يؤلف مثل هذا الكتاب مع استحالة ترقيه إلى الإعجاز.

---

(221) النبوات ١٣.

٧- العقل والمنطق:

وإذا كان المنطق معرفة عقلية، فإن ابن تيمية، قد حاول التخفيف من غلواء أصحابه، فيما تابعوا فيه اليونان. وذهـب الشيخ، إلى أن هذا العلـم مقحـم علـى العلـوم الشـرعية الإسلامية. وهذا ما دعاه إلى الكشف عن عيوب هذا المنطق بطريقة منهجية.

ومن هنا نرى ابن تيمية، لا يوافق على كون المنطـق: "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن، أن يزل في فكره [٢٢٢]".

ذلك أنه يرى أن اتباع تعاليم الإسلام هـو الـذي يجنـب الإنسان الأخطاء بقدر الإمكان البشري. فمن غير المقبول أن يكون لدى المسلمين اكتفاء في شيء ما، ثم هـم يحـاولون هجره، واستجلاب بديل عنه من غيرهم.

ولم يكن حكم ابن تيمية، على المنطق الأرسـطي حكمـا سريعا، بل إنه نابع من دراسة وتريث، ويتضح هذا من قوله: "إني كنت دائما، أعلم أن المنطق اليوناني، لا يحتاج إليه

---

[222] خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ١١٦

الذكي ولا ينتفع به البليد. ولكن كنـت أحسـب أن قضـاياه صادقة، لما رأيته من صدق كثير منها. ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه [٢٢٣]".

فهنا دراسة وتثبت، مع تدرج في الحكم علـى الأشـياء، وتلك هي سمة المنهج العلمي السليم.

ولقد كان ابن تيمية، يفسح المجـال لمنطـق إسـلامي، مستمد من القرآن والسنة، بعيد عن وثنيـة اليونـان، وعـن انحراف الفكر الفلسفي والنابع من وثنية بعض الفلاسفة.

ومن هنا كان منهج ابن تيمية، استخدام النقد البناء، فـي هذا المضمار. لكن الدراسات المنطقية من بعده، انحرفت عن النقد البناء إلى الشرح والتفريع والتعليـق، علـى المنطـق الأرسطي. وقد بالغ بعض مفكري الإسلام في هذا الجانـب، إلى حد أن أوربا لم تتصل بأرسطو، إلا عن طريق الشروح والاصطلاحات العربية المترجمة إلى اللاتينية.

إن العالم العاقل حقيقة، هو الذي يعرف حقيقة الشـرع، لأنه: "ليس في طوائف أهل الأهواء والبدع، من يعرف حقيقة

---

[223] المصدر السابق ٣

ما جاء به الرسول [٢٢٤]".

وكان من الصعب، أن يعرف هؤلاء المبتدعـة، حقيقـة الدين الذي جاء به محمد صلى ا عليه وسلم؛ لأنهم عقـدوا العزم على مخالفته ومحاربته.

والعاقل مأخوذ بمنطقه، حسبما يدعو إليه: "إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة، يعاقب بما لا يعاقب به الساكت [٢٢٥]".

ذلك أنه من الواجب علـى المسـلم أن يقـول خيـرا أو يصمت. ومن هنا نرى ابن تيمية يمجد عقيدة أهـل السـنة والجماعة، لأنها عقيدة ترتكز على الإيمان بـا وملائكتـه وكتبه ورسله والبعث والإيمان بالقدر، فهو يقول:

"لا عدول لأهل السنة والجماعة، عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم ا علـيهم، مـن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وقد دخل في هـذه

---

(224) النبوات ٢٤٢

(225) ابن تيمية السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والراعية ص ١٣٢ دار الكتاب العربي – بيروت.

الجملة، ما وصف الله تعالى به نفسه، في سورة الإخـلاص، التي تعدل ثلث القرآن [٢٢٦]".

إن أهل السنة قد عرفوا حقيقة ما جاء به الرسول صـلى الله عليه وسلم، لأنهم عزموا على ذلك، فتوصلوا إلى الحق، لسلامة طويتهم وطهارة قلوبهم.

وفي رأي ابن تيمية، أن العرب لهم فضل دون غيـرهم؛ لأن الله تعالى، قد ميزهم، بما منحهم به من العلـم النـافع، وذلك من ثمار قوة العقل وقوة البيان.

وكان يرى بهذا إثبات أفضلية من كان أفصح العرب على الإطلاق، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. ويقول ابن تيمية عن العرب:

"وسبب ما اختصوا به من الفضل- والله أعلم – ما جعل لهم من العقول والألسنة والأخـلاق والأعمـال، وذلـك أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح. والعلم لـه مبـدأ: وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمـام: وهـو قـوة

---

[226] ابن تيمية: العقيدة الواسطية ٢٤ – ٢٥ ط ٤ دار الاعتصام بمصر.

المنطق الذي هو البيان والعبارة".

ثم يردف هذا بعبارة تشير إلى رأيه في تمجيـد العـرب، غاية التمجيد، فيقول: "فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر علـى البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييـزا للمعـاني (٢٢٧)"

٨- عدم تعارض النقل والعقل:

إن كل ما علم بالعقل الصريح، لا يوجد إلا مـا يوافقـه ويصدقه في شرع الرسول صلى ا عليه وسلم [٢٢٨].

فالرسول عليه السلام، قد أخبـر بمجـازاة العقـول، لا بمحالاتها. فإذا وصل دليلان إلـى درجـة القطـع، امتنـع تعارضهما، حتى ولو كان أحدهما عقليا والآخر سمعيا.

ولا يسلم ابن تيمية للمنحرفين فكريا عن الدين، بأن العقل يوافق مذهبهم بحال:

"بل العقل الصريح إنما يوافق ما أثبته الرسول، ولـيس

---

(227) جامع الرسائل ١: ٢٨٩.

(228) الرد على المنطقيين ٢٦٠

بين المعقول الصريح، والمنقول الصحيح تناقض أصلا".[229]

فإذا تعارض المعقول مع المنقول، كان ذلك دليلا على خطأ المعقول، وهنا يجب الرجوع إلى المنقول.

وقد ضرب ابن تيمية مثالا لمن جاوزوا الصواب، بما وجد لدى الفخر الرازي وأمثاله. فليس في كتبهم التي تحدثوا فيها عن أصول الدين، ما يوافق المنقول، ولا ما يوافق المعقول، كما هو الحال في تعاليم الدين. وفي هذا يقول ابن تيمية:

"جميع المقدمات العقلية، التي ترجع إليها براهين المعارضين للنصوص النبوية، إنما ترجع إلى تقليد منهم لأسلافهم، لا إلى ما يعلم بضرورة العقل، ولا إلى نظره".[230]

وقد لمس ابن تيمية موطن الداء لدى هؤلاء، وهو إلغاؤهم عقولهم، بتقليدهم لسابقيهم دون تبصر أو روية.

---

(229) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٢٠٠.

(230) بيان تلبيس الجهمية ١: ١٩.

والتقليد إنما هو أخطر آفة تصيب العقل والعقيدة.

فالإسلام الحنيف، يشير دائما إلى أهمية العقل، في تثبيت تعاليمه، فقد حض سبحانه وتعالى، على تدبر القرآن وتعقله. مثل:

﴿ **كِتَاب أَنْزَلْنَاه إِلَيك مبارك ليدبروا آياتِهِ** ﴾سورة (ص)٢٩.

﴿**إِنا أَنْزَلْنَاه قُرآنًا عربيا لعلكُم تَعقِلُون**﴾ يوسف ٢.

﴿**إِنا جعلْنَاه قُرآنًا عربيا لعلكُم تَعقِلُون**﴾ الزخرف ٣

ويعلم من هذا، أن ا سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن عربيا، ليعقله الناس ولا يكون العقل إلا مع العلم بمعانيه [٢٣١].

ومن هنا فقد عاقب الإسلام شارب الخمر، ولو شرب قطـرة واحدة، لأن الخمر تغطي العقل. وفي الحديث عن تحريم الخمر:

"إنها داء وليست بدواء، وإن ا لم يجعل شفاء أمتـي فيمـا حرم عليها [٢٣٢]". (أخرجه مسلم وأبو داود والدرامي).

---

(231) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٨٩ - ١٩٠

(232) السياسة الشرعية ١١٥

٩- التعارض العقلي لدى الفلاسفة:

وعلى الرغم من أن المذاهب الفلسفية عقلية، فقد تناول ابـن تيمية مناهج بعضها بالنقد، لأنها مع مخالفتهـا للـدين، تخـالف صريح العقل. وليس في الشريعة الإسلامية أمـر مـا يخـالف القياس، فهو دائر مع أوامرها ونواهيها وجودا وعدما، كمـا أن المعقول الصريح دائر مع أخبارها وجودا وعدما:

"أما أن ابن تيمية كان سيئ الرأي، في فلسـفة اليونـان، وفي فلسفة الإسلاميين، الذين يعتبرهم تبعا لفلاسفة اليونـان، فهذا ما لا نكران له. وكتب ابن تيمية مملوءة بـالرد علـى مذاهبهم [٢٣٣]".

ولم يكن ابن تيمية بدعا في موقفه هـذا، مـن الفلسـفة اليونانية ومن تابعها من فلاسفة الإسلام. فقد صدرت سلسـة من التحريمات من الكنيسة من عام ١٢١٠ – ١٢١٥م بمنـع تدريس كتب أرسطو في جامعة باريس. وكذا كتب شـراحه،

---

[233] خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ١٢٠.

ولا سيما شرح ابن سينا [٢٣٤].

وإذا كان لبعض فلاسفة الهند واليونان، بعض العذر فيما وقعوا فيه من أخطاء تتعلق بالنبوة، لأنهم لم يدركوا الإسلام فليس لفلاسفة الإسلام عذر ما في اتباعهم لهم في هذه الأمور، بل وفي تحويرهم لبعض تعاليم الإسلام، ليوفقوا بينها وبين فلسفة اليونان، كما فعل أصحاب نظرية الفيض أو الصدور، حين يفسرون الملائكة بأنهم "عقول"، مثلما قال أصحاب أفلوطين، وفي ذلك محاولة فاشلة للتوفيق بين الدين والفلسفة.

ولقد تجاوز الفارابي حدود المعقول والمنقول، إذ جعل النبوة والوحي من جنس المنامات المعتادة [٢٣٥].

ومثله في هذا، ما ذهب إليه ابن سينا وأتباعه، إذ أتوا بحديث موضوع بخصوص العقل، وهو: "أول ما خلق ا العقل...".

---

[234] سلفادور غومث نوغالس: الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطي ص ٥٥

[235] النبوات ١١.

وقد ذكر الشوكاني الحديث بلفظ: "لما خلق الله العقل، قال له: قم، فقام.." إلى آخره وقال عنه إنه خبر باطل ولا يحل الاحتجاج به [٢٣٦]. وهذا يدل على أن ابن سينا له ميتافزيقا خاصة، بالرغم من تأثره بأرسطو وأفلوطين.

وقد وقع ابن سينا ومن معه في الخطأ أيضا، لأنهم ظنوا أن لفظ العقل عند اليونان وغيرهم، مثله عند المسلمين، ويقول ابن تيمية عن هؤلاء:

"يزعمون أن الصادر الأول، هو العقل الأول، وعنه صدر كل ما دونه. والعقل الفعال العاشر، رب كل ما تحت فلك القمر. وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل، فليس أحد من الملائكة مبدعا لكل ما سوى الله"[٢٣٧].

فنظرية الفيض أو العقل تتركز حول "الخلق"، إذ تحاول تجريد الإله عنه، وإعطاءه للعقل الأول، ثم ما بعده بالترتيب، مع أن الخلق من أهم خصائص الإله.

---

[236] الشوكاني (محمد بن على ت ١٢٥٠): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة حديث رقم ١٣٤٦ تحقيق عبد الرحمن اليماني ط ٢ ١٣٩٢ هـ المكتب الإسلامي بجده.

[237] الفرقان ٨٧

ولم يقف هؤلاء الفلاسفة عند هذا الحد، بـل نفـوا أمـرا مسلما به وهو أن الصور العقلية الكلية مجـردة، بواسـطة تصور النفس لها [٢٣٨].

فادعي هؤلاء دعوة دون دليل، حيث ذهبوا إلـى أن مـا يتصوره العقل من المعاني الغائبـة الكليـة، موجـودة فـي الجواهر، قائمة بأنفسها، سواء أكانت مجردة عن الأعيان، أم مقترنة بها. وقاسوا على ذلك كلا من العدد والمقدار والخلاء والدهر. ولم يتفق ابن تيمية معهم، ورد عليهم بقوله:

"الذي لا ريب في وجوده، نفس الإنسان وما يقوم بها. ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات موجودا في الخـارج، فكـان إفسادهم للعقل أعظم، كما أن إفساد المتكلمين للحس أعظـم، مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هي العلوم العقلية".

ويكشف ابن تيمية سبب الداء لدى هؤلاء الفلاسفة، الذين أفسدوا العقل، وكان من المتوقع مـنهم أن يصـلحوه، فهـو يقول:

"والمقصود هنا، التنبيه على أن من خالف الأنبياء، فإنـه

---

[238] ابن القيم: الروح ٢٣٨ – ٣٣٩ – ط ٤ الهند.

كما أنه مكذب لما جاءوا به من النبوة والسمع، فهو مخـالف للحس والعقل، فقد فسدت عليه الأدلة العقلية والنقلية [٢٣٩]".

وهكذا فإن الإيمان الصحيح يوجه العقل توجيها سـديدا بعيدا عن الغلو والانحراف، كما أنه يرده إلى العدل والحق، وينجو به نحو الاستقامة والصواب.

غير أن هناك نظرة حديثة الآن، فيما يخـص اخـتلاف الفلاسفة تتلخص في أن منبع الاختلاف هو درجـة اهتمـام فيلسوف ما بموضوع بحيث تختلف درجة الاهتمام هذه لدى سواه، وأن منهج التحليل والتركيب يمكن أن يكـون منهجـا مجمعا لآراء الفلاسفة:

"بالفلسفة مناهج مختلفة متمايزة، ولا عيب في اختلافها، لأن لكل مشكلة فلسفية منهجا يلائمها. وفي بعض المنـاهج فجوات، وبعضها الآخر، معرض للنقد. لكن هذه العيـوب لا تهدد كيانها. وعلى أي حال يمكن رد تلك المناهج الفلسـفية إلى منهج واحد يقبله أغلب الفلاسفة، وهو مـنهج التحليـل

---

[239] النبوات ٢٨٦.

والتركيب [٢٤٠].

وهذا الكلام معقول ومقبول إلى حد كبير، وهو يلتقي مع رأي ابن تيمية في أن الفلاسفة مختلفون. ونشير هنا إلى أن ابن تيمية، لم يكن يثيره من الفلاسفة سوى انزلاقهم وبعدهم عن تعاليم الأديان. وتلك غيرة نحمدها له.

وعلي كل حال فإن نظرة ابن تيمية إلى العقـل، نظـرة واعية وهي أيضا تفسير لطبيعة العقل البشري.

وهذا يختلف عن النظرة القاصرة التي وقفتها الفلسفة التجريبية، إذ رأت أن المعرفة الإنسانية تخضع للتجربة الحسية، وأنها ليست إلا مجموعة من الإحساسات التي تنقلها الحواس [٢٤١]. وفي ذلك ارتباط بالمادة إلى حد كبير، مع نفي أن تكون الفكرة العقلية شيئًا يمكن تصوره.

---

[240] د. محمود زيدان مناهج البحث الفلسفي ص ١٣٥ ط ١٩٧٧ م الهيئة المصرية العامة للكتاب- بالاسكندرية.

[241] ف. ح. حجر " طبيعة العقل المحض ص ٥ المطبعة المصرية الحديث ومكتبتها بالقاهرة – دون تاريخ

ومن المسلم به، أن مبادئ الإسلام الحنيف، من شأنها أن تقنع عقل الإنسان ولا سيما المسلم، ومن ثم كان لها دورها في تثبيت عقيدة المسلم [٢٤٢].

ونود أن نشير إلى أن ابن تيمية، لم يكن متزمتا في موضوع العقل هذا، كما يتبادر إلى الذهن، بسبب ما عرف عنه من تمسكه بالكتاب والسنة، لأن الكتاب والسنة بدورهما قد أفسحا مجالا للعقل عن طريق الاجتهاد، كي تكون للمسلم شخصيته القوية، ولا يكون مجرد آلة تدور ثم يعتريها الفساد والتحلل. فالمسلم يظل متجدد الروح، قوي الفراسة، لأنه ينظر بنور ا عز وجل.



---

[242] Richard Bell: Rhe origin of I slam in its Christian Environment. London 1968 ، P 207

ب – مراجع إنجليزية

1- Bell Richard:

the Origin of Islam in its Christian Enviro. Nment، London، 1968.

2- Hiller، F:

Prayer، History and Psychology، 1958.

3- Iqbal M D r:

The way of The Muslim. 1979 (Printed in Great Britain by Martin's of Berwick).

4- NichoIson:

Legacy of Islam، London 1949.

5- Underhill:

Mysticism، Lonon، 1949.